

حراء

علمية، ثقافية، صليبة

www.hraamagazine.com

- مهتمسو الروح: الربانيون - فتح الله كوتون
- النقلمس ثمة حرية البحث - أ.د. محمد سعد رمضان
- النموذج الإسلامي لتحرير المرأة - أ.د. محمد عبد الوهاب
- الجليل القرائي وبنائه العلمي - أ.د. رجاء الدين
- محمد إقبال وملكيه الزمان النورسي - أ.د. محمد عبد الحميد
- جمالية التعريف القرائي بالله - أ.د. محمد عبد الحميد



المحتويات



| | |
|-----|---|
| ٢ | مهندسو الروح .. الريانيون / فتح الله كوكلي |
| ٥ | القدّيس ثمة خربة البحث وليس معاصرة لها / أ.د. محمد سعيد رمضان الوطّى |
| ٧ | أصالة التجربة التربوية في التراث الإسلامي / أ.د. بركات محمد مراد |
| ١١ | مناجاة أمّ / أمين مابسان |
| ١٣ | عمل الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية / د. الحسن العنحول |
| ١٧ | الخط العربي .. فزوة الجمال وقصة الإبداع / أحمد عبد .. |
| ٢١ | النموذج الإسلامي لتحرير المرأة / أ.د. محمد عمارة |
| ٢٥ | الإحساسية في فن يدبّع الزعمان النورسي / أ.د. عثمان سليمان |
| ٣٠ | السيرة في القرآن الكريم / د. إبراهيم لوزدمو |
| ٣٤ | أنا لسان عبد الله / أ.د. عرفان يلمار |
| ٣٨٠ | الحليل القرآني وبنائه العنفي / أ.د. زغلول الحمار |
| ٤١ | محمد إقبال ويدبّع الزمان النورسي / أ.د. حسر الأملاني |
| ٤٥ | حالة التعريف القرآني بالله / أ.د. فريد الأصغري |
| ٤٩ | من أجل بناء إنسان سليم / ناهد عبد النعم |
| ٥١ | الفروق الفردية في العمل المشترك / د. سليم البدن |
| ٥٥ | إلى جبل قاف / محمد لوبار |
| ٥٨ | شعرية الإصلاح في أدب مصطفى صادق الرافعي / د. عبد السلام أفلون |
| ٦١ | صلاة ... / عمر بناء الدين الأموي |
| ٦٢ | اسم "هامان" معجزة قرآنية / أورحان محمد علي |
| ٦٤ | آثار الرسول في جناح الأمانات المقدسة / حراء |



مهندسو الروح . الربانيون



ق

نشرنا للحياة في الإرادات والمزايم الأخرى، وفي دفعنا للقلوب الأخرى نحو الأعالى والذرىء كما نرغب دائماً في أن نكون ضمن السعداء الذين يتصدون للحرائق بصبروهم ويعرضون عن المنافع الدائمة. وندهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا ولحركاتنا موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية التي الغرست عروقها عقيدة في نفوسنا فصارت غاية أرواحنا المنشودة.

نعم، إن هذا النمط من الشعور بالمسؤولية وعزيمة الحق العالية وإرادة القيادة الإرشادية، التي تتعدى حدود فرديتنا دائماً، والتي تشكل أكثر للقومات حيوية في النظام الشامل للعالم كلاً وجمعاً، وأهم مصدر للأمان الكوني.. هذه المسؤولية والعزيمة والإرادة هي الأساس الوحيد لخلاصنا، كما هي الصوت المنادى واللسان البليغ الذي ينشر الروح وللعلى الذين نحتاج إليهما الإنسانية جمعاء.

ولسن يدرك الخلاص أبداً، أولئك الذين يدعون بظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدون أعمارهم في ظلمات مناهات الأثانية. ودع عنك إدراكهم للخلاص، فكهم تسبب هؤلاء في

قد يحبط بعضهم شفيعه استحقاقاً إذا ما ذكرت القيم الأخلاقية والأعناق الداخلية للإنسان وأهمية الحياة القلبية والروحية، لكن ما من شئ في أن السبل الواصلة إلى الإنسانية الحقيقية تمر عبر هذه القيم والحركات السامية. ومهما كانت طنون وتصورات البعض ماء، فإنه ليس اليوم أمام إنساننا للعاصر الذي التقصم ظهره تحت ثقل أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية معقدة، وناه عمل حداثات عديدة في آن واحد، إلا طريق واحد يقده من الكربوب ولللمات للثوائية؟ وهو تمثيل هذه الحركات في كافة أنحاء الحياة. وإن تنفيذ هذه المهمة الحيوية لا يمكن أن يتم إلا على أيدي ربانيين لا يهتمون بأنفسهم أبداً، ولعن اهتماموا بالآخرين بأن خلاصهم هو في إنقاذ الآخرين.

ولعن نرى - ونعني بذلك حقيقة الإسلام- أن خلاص الفرد عند الله موصول بأن يكون مخلصاً. وكذلك نرى أن سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في كوننا ملجأ للأرواح الأخرى، وفي



وإن القرآن وصاحب القرآن حين يحدثنا عن بطل القلب، يؤكد أنه رجل الحقيقة وإنسان الروح الذي يرى ويفكر ويتصرف بكل وحدات الوجدان؛ إذ إن قيامه وقعوده رجاء، وقوله وفق ووئام، وأحواله كلها رقة ولطف... بطل القلب وعاشق الحقيقة الذي عرف سر الوجود في أعماقه وكان مثلاً حياً وترجمة صادقة لمعنى الحياة وحقيقتها.

إن العاية المستشرفة لرباني كهذا هي تحقيق أمور ذات شأن عظيم مثل الانتقال بالأرواح كلها إلى التواجد الأبدى، وتقديم إكسير الخلود إلى الجميع، والتحرر المطلق عن رعات نفسه ومنافع ذاته ومخاوفه المستقبلية ثم الإحساس بوجود الله حاضراً سواء أثناء مرافقته لأعماق النفس للكونية أو انطلاقه في آفاق الكون الشاسعة. إنه حامل قلب نبوي مهوم بهموم الغير، يرتفع على بؤسه البشري والحسني، فيحفظ لسعادة البشر حوله، ويرسم التوامج تقوياً من أجل أمان وسعادة المجتمع الذي يتنسب إليه، ويعتريه خفقات بعد خفقات لعذاب الإنسانية وبؤسها، وأمهته بالأخص.

وهو في صراعه مع المساوئ التي أهدت بالشرية ولا سيما بامتثال له أسلوبه الخاص؛ فبدلاً من أن يسلك طرقاً مسنودة كما يفعل البعض حيث يستنفدون الوقت والطاقة بتعداد ورسم المساوئ والأباطيل ربما مفصلاً يعكر نقاء العقول الصافية ويضلها؛ يقوم هو ويقعد مهموماً بإيجاد المشاريع التي ينبغي إنجازها، ويتقصد عن حلول دوماً توقف أو ملل، ولا يبي عن مناصرة للمصالح والمشاكل ومواجهتها بحب عميق لهدفه وحرص على المسؤولية وشعور بـ"الإحسان"...

فهو بطل عزيمة لا توجد إلا عند الأنبياء... بطل عزيمة يملئ بحناحي عجزه وفقره، ويتحرر بالشوق والشكر، ويثن أبنائه تحت مسؤولية إحياء معنى "الاستعانة الكوني العام والحقيقة العظمى". وإها لمسؤولية عظيمة تشمل كل مسألة تدخل في إطار إدراك الفرد وإخائه الشاعرة. مسؤولية إزاء الوجود والحوادث... ومسؤولية إزاء الطبيعة والمجتمع والماضي والمستقبل، والأحياء والأموات، والشعب والنشأ، والقراري والأمسي، والإدارة والأمن... ومسؤولية إزاء كل إنسان وكل شيء.

وإن الإحساس بنقل هذه المسؤوليات وآمها في القلب، والاستعانة بها في الروح خفقاتنا بعد خفقات هو جزء من جدول أعماله اليومية يتدلى ليحوز على الموقف الأول في السبق، وأظن أن

هناك من أحسن الظن هم. والمضاهة أن المراحل التي أحرزت الإنسانية قديماً فيها هي مراحل تصالحها واستجاملها مع الوجود. ومن ثم ينبغي اليوم أن يترك هؤلاء الذين يروجون لمسيرة المستقبل الأتالية حاشاً، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة والضرورة. إذ ستبلغ الغرام والعايات والرؤى قيمتها الحقيقية بقدر حصولها على مساندة الهيئات المتكاملة والعرالم للتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعاني. فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعية، ومن الفطرة إلى البحر، ومن ثم بلوغ الخلود، هو إلقاء باللونان في الآخرين والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم.

ومن مقرب آخر، أن يكون الإنسان "إنساناً" وفق العاية التي استهدت من خلفه، مرتبط بتخضعه لأوامر قلبه وانصياعه لروحه، رغباً عن بدنه وجسمانيته و"عقل معاشته" اللبوي. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، وبقيته عزائين القلب المتأهله للاعتبار والتقدير لكي يعرف نفسه وما حوله حق المعرفة. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحافظ على طراوة قلبه وصفوة روحه في كل أوانه، ولا يقي نفاذه وطهره كنفاء وطهره الأطفال برهقة ثرائه الذهني والفكري والحسي في كل وقت، لن يوحى بالثقة إلى من حوله ولن يبرز على التصديق والإيمان قطعاً، مهما توسع في رحاب العلم والأدب والخيرة. وهذا هو السبب في عدم ثقة والمتمثلان حوكم الناس بغير من السياسيين وآخرين يسوقون القوة والخبرات أمام المشطق والمحاكمة العقلية والقلب، ما عدا الذين يظهرون لهم التصديق خوفاً واستسلاماً.

إن الأرواح الطاهرة والقلوب الصافية قد اتبعت دائماً الفكر النزيه والسلوك السوي النابعين من القلب. نعم، والقلب الطاهر المحافظ على صفاته القظري قد أحسب - في إشارة قول مبارك - منزلاً للروح تعالى معلوماً بالمكون والمكون. في هذا المنزلة يمكن الإحساس والشعور بحقيقة الماوراء بلا كم ولا كيف بدرجة صفاء وتماويه أبوابه المفتحة على العيوب اللاهائية. وبالطبع إن من قال "رأيت" قصد الرؤية بهذا المعنى... فهذه الأرواح الصافية المطلقة عن الزمان بلغت الفردوس... بلغته وهي لم تزل في الدنيا بعد، بلغته في نواة "طوبى الجنة" المغروسة في أعماق قلوبها، وشاهدت الكائنات في ذرة، بل وصلت إلى نقطة أبعد من ذلك، إلى أفق "الرؤية".

حيث وجودنا وبناؤنا وننظر إليه هذه العين. فمن لهم لتبسيط حركتنا أن تجعل ذلك في رأس أولويات مشاعرنا وأفكارنا وبرامجنا. وخلاف هذا إهانة وغيانة للأمة. لقد أن الأوان، بل يكاد يفوت، لكي نتحمل مسؤولياتنا إزاء مؤسساتنا في كل مجال مثل الدين والعلم والفن والأخلاق والاقتصاد والأسرة، ونسور ها إلى مواقعها الحقيقية في مسيرة التاريخ. ونحن - كأمة - ننظر ونترقب طريق أبطال العزيمة والإرادة والجهد الذين يحملون هذه المسؤولية.

فحين لنا حاجة إلى حسنات ونظم فكرية تُستجدي من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا للماسة هي إلى أطياف روح وفكر يعمرون في كافة أبناء أمتنا حس المسؤولية وشعورهم للمقدس... أطياف روح وفكر يُمكنون أرواحنا من الانفتاح إلى أعماق المآراء وآفاق العير بدلا عن وعود السعادة المؤقتة الزائلة، ويعرفونا نظوة واحدة إلى مراتب ترى فيها المبدأ والمنتهى معا وسوية.

نعم، ننظر أطلالاً بعضفوق المسؤولية والقضية إلى درجة يتخلون فيها حتى عن دخول الجنة إذا لزم الأمر، بل ويقفون عن هجر حرام إذا ما دخلوها من أجل توبة المسؤولية حقها... أبطالاً يقولون: "والله وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه".^(١١)

نعم إنه ألق نبوي... وإن عقلا مثلنا بأنوار يستمدنها من هذا الأفق يقول متى استوجب الأمر خاضعا خاصا: "ليس في قلبي رغب في الجنة ولا رغب من جهنم... وإذا رأيت إيمان أمني في خير وسلام فإني أرضى أن أحرق في هياب جهنم..."^(١٢) أو يمد فراعسه متضرعا متهللا: "إني، صممت بئني حتى تخلصني من جهنم، فلا يمني فيها مكان لغوي...". فتهتز السموات بأبنائه وبكاته.

إن إنساننا يحتاج اليوم أمس الحاجة إلى أبطال العزم اللذين الذين يذفرون الدمع على آثام أمتهم، ويقدمون مغفرة البشرية وعفوها على مغفرة أنفسهم، ويفضلون الوقوف والعمل في "الأعراف" سعلاء يسعدوا سكان الجنة، وحتى إذا دخلوا الجنة لا يهابون وثقا للاستمتاع بمثلهم الشخصية. ■

هذا هو العزم النبوي الذي يرفع الإنسان درجات فوق درجات عند الله، ويكسب القرب من قرب ويوصل إلى المعراج الروحي. وإن الهوم والألام الصادرة من الشعور بقل المسؤولية - مع استمرارها ودامها خاصة - هي دعاء غير مردود، ومنع وأمر مؤلدة لمشايير بديلة، ونعم له تأثير السحر في القلوب المحلصة التي تمكنت من المحافظة على صفاتها. إن بطل القلب والروح مرشح - بقدر ضخامة همه - لتجاوز طاقته الذاتية، بل لتجاوز طاقة جماعته التي ينسب إليها... وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والأنية. وأنه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يُحَيِّون والذين يُحَيِّون (غيرهم). وقد كررنا مرارا وتكرارا أن الذين يفضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء العير، هم الفوارتون الحقيقيون للحقائق التاريخية، وهم الذين نودع أرواحنا ودعة مأمورة عندهم... أولئك الذين لا يطلبون من الجماهير أن تسبهم، ولكن وجودهم نداء جيوري وأي نداء... فأيضا كانوا، قهرح الجماهير إلى أولئك الريائين وكأهم مركز جذب... وقد تستغل الموت سعادة وراء ربادهم.

وسيكون المستقل ينادجه للمثلة للمسؤولية ومشاهد النجاح فيه أسرا رائعا هؤلاء الريائين القانتين هذه المهمة الرسالية. إن وجود وبقاء أمتنا والأمم المتصلة ها، وبموج غار وخيرات حضارة جديدة ومتغيرة، والحركة الواسعة والباعثة للحيوة الثقافية ثرية غنية... مستتس بأفاس أولئك الريائين، وترفع كرايات خفاقة في السماء، وتسرعو المستقل على أكتافهم القوية... وذلك لأهم أبناء على الخفاقات السامية وورثة ثراثنا التاريخي العريق.

ومع وراثته التاريخ هو وراثته كل ركائز الماضي المعروف والمجهول والصغير والكبير، وإفاء هذا الركام واستحداث مركبات جديدة منه، ثم نقل ذلك كله إلى الأجيال القادمة، أصحابه الحقيقيين. فإن لم يوف هذا السوارت مهمته التاريخية المتعلقة باليوم والغد حقها من الاهتمام، فسوف يصب مسؤولا عن حراب اليوم وضباب الغد. وهي مسؤولية تضعه - إلى حد ما - في موضع خيانة القضية والتاريخ وهدم الجسور بينا وبين المستقبل إذا ما وقع في غفلة وتعاوس أو توقفت لتبحث عن ميل إليه أداء المهمة، بل وحتى إن مرته حماسن الأخيرة الجلدية فدخل رغبيا إليها.

فمن الضرورات اللازمة حقا أن توفى بأن المستقبل لنا من

(١١) هرجة عن الفركلة: عوي مدر لكلي ثم عار.

المراض

(١٢) الشرة الشرة لان خلدان ٢٨٥١

(١٣) سورة قافية لبيع الرمة عند الجورس، ص ٤٥٧



الله

محمد

ي

يسرى بعض الإحوة العربيين أن المسلمين يذهبون في تقديس قرآنهم ونبيهم مدحاً

وأظن أننا حينما نعلم أن تقديسنا لنبي ما إنما يعني تشريه عن السوء وعصيته من الخطأ، فهل هناك شيء غير الحق أولى منه بالتقديس، أي التشريه عن السوء والخطأ؟

بهمهم من المتع بحرية الرأي، وربما رأوا أن الأولى بالمسلمين أن يُسزلوا رسول الله ﷺ عن الرتبة القدسية التي يبوؤوها في التقديس إلى حيث لا يبدو في أفعالهم أكثر من زعم في قومه وأت زعامته مع دهاب عصره، فما الذي ينبغي أن نقوله لحولاء الإحوة؟

منهجنا في البحث والنقد

نقول لهم: إن تقديسنا للإسلام ومصدره وسبب حاتم المرسلين، إمام في نهاية رحلة طويلة من البحث والنقد، وبعد افتراض كل الاحتمالات للمسكنة في تفسير الإسلام والقرآن وظاهرة الوحي وتحليل شخصية محمد ﷺ، والاعتماد على منهج الاستقراء التام فاد.

غلبنا وصلنا من هذه الرحلة إلى النهاية ذاكما التي وصل إليها الرجل الأول من قبل، وثبت لدينا بالحجة العلمية أن الإسلام ليس إلا شريعة رب العالمين، عسرف بها عباده في الأرض، وأن محمداً ﷺ لم يكن إلا الأمي على تنقل هذه الترسعة إلينا، وأن القرآن ليس إلا وحى الله للرسول عليه لفظاً ومعنى، كان لا بد لنا عدلنا من اليقين بأن الإسلام حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد تسزل من عبد الله على عباده.

وهل رأيتم عاقلاً لا يخلصه عقله على تقديس الحق؟ وهل البائي على تقديس الحق إلا تعبر غير مبأسر عن تقديس الباطل؟

وهكذا، فإن دعوة بعض الناس إلينا إلى إبعاد سمعة التقديس عن الإسلام ورسوله، لاسيما أخرجهم الذي أرسل إلى الناس كافة، ليتيسر لنا -فيما يتصورون- أن نقتحم إلى ذلك كله بالطريق وبالصحت والنقد، دعوة متأخرة جداً، فقد اقتحمنا إلى ذلك سائر ألسوان البحث والنقد، قبل أن ينتهروا إلى ذلك، ثمناً كما اقتحم كل فرد من أصحابنا يُسْمُون أصحاب رسول الله ﷺ سائر سبل الفحص والنقد والافتراضات المختلفة في تفسير شخصيته ﷺ قبل إيمانهم به. وما يقيننا اليوم بقدسية هذا الدين ونبيته إلا إقرار الأخير الذي انتهوا إليه من رحلتنا النقدية هذه.

وهو بكم فالتظروا إلى ترجمة عمر وعالد وعمر وعكرمة ومصعب وضوان الله عليهم أجمعين -وهؤلاء من أبرز أصحاب رسول الله- تحدثون أن إشرافه الإسلام في حياة كل منهم إنما تفحرت من أحشاء طلبات تلك المعارضات والانتقادات. غير أن للمعارضة التي كانوا يعارضوها، كانت -على فسوها وشلقها- منهكاً تقدياً للوصول إلى معرفة الحق، ثم إلى الانتضباط به، أي لم تكن معارضتهم هدماً بحد ذاته، يقعون منه في سجن أدي



تقديس الحق أمر طبيعي

إنما اليوم نسلك الشهج ذاته الذي سلكه أسلافنا من قبل؛ مرونا مثلهم بمرحلة البحث والقدر ووضع الافتراضات المسككة، ثم انتهى بنسأ هذا الشهج إلى معرفة الحق والقبصر به. وإنه نشيء منطقي وطبيعي أن نترجه إلى هذا الحق الذي عرفناه فهدسناه ونوليه تقننا ثم ولانا المطلق.

وإن من حق الغربيين الذين لم يسلكوا إلى معرفة الحق الذي عرفناه هذا الشهج المنطقي الذي سلكناه أن لا يشعروا بأي قدسية للإسلام الذي لم يتبن لهم جوهره بعد، ولا لنبيه محمد ﷺ الذي لم يقفوا على حويته الحقيقية بعد، ولا للقرآن الذي لم يتفوهوا على دراسته بعد.

ولكن ليس ممن حقهم أن يجعلوا من جهالتهم هذه قرار الهام وتجرع لمعتقداتنا ومفلساتنا التي لم ننته إلى قرار اعتناقها وتقديسها إلا بعد منهج طويل من البحث والقدر والنظر.

وصورة القول أننا نحن المسلمين لا نتعامل مع تلك القداسة العاضة التي تتحدث عنها الآخرون، والتي لا يملك من ألفاظ التعبير عنها والتعريف ها إلا ألها الرهبة والتعظيم للمجهول، بل إننا لا نفقه شيئاً من هذه المصطلحات، ولم يعودنا إسلامنا على النظر إلى المجهول بأي إحلال أو إكبار؛ وإنما نتعامل مع منهج المعرفة الذي يوصلنا إلى معرفة كل من الحق والباطل.. وعندنا لا يد أن نقدر الحق لأنه حق، وأن نتجاوز الباطل لأنه باطل. ومن لم يقدر الحق بعد معرفته له، كانت معرفته له عبثاً، بل الشأن فيه أن تكون نظرتك إلى كل من الحق والباطل واحدة، وأن يكون تعامله معهما واحداً دون تفرق.

تُرى أي قيمة تبقى لحياة تضمحل فيها الفراق بين الحق والباطل؟ وأي فائدة تبقى لعلم لا يملك أن يصنعها ويضع كلاً منهما في المكان اللائق به؟ بل أي مزية تبقى للعلم على الجهل إذا لم يملك أن يحجز الحق عن الباطل، وإذا لم يأت له أن يمس الحق في حصن من القداسة والتشهير؟

وكلمتي الأخيرة هي أن الإنسان معنور إن هو جهل الحق فلم يقدره ولم يتعامل معه، ولكنه ليس معنوراً إن هو أصر على أن يجعل من جهالته لسان سخرية واستهزاء من للكفلس. ■

لا يحبس لهم عنه، دون أي نظر إلى الحق ومساوئه، كما يحبه لنا أولئك الذين تأهم التشكر لقداسة الحق بحد ذاته مهما تهمت أنه الحق، والانطواء في سجن معارضة ومقاومته، مهما ظهر لهم أن عملهم هذا باطل من الفعل والقول.

منهج الصحابة في البحث عن الحق

انظروا إلى عمل عدي بن حاتم ﷺ. وقد كان واحداً من أبرز رجال المعارضة وأكثرهم كراهية لرسول الله ﷺ أيام كانت الحقيقة غائبة عن بصيرته، وكان قد ترك المدينة وحق نصاري الشام. قال يتحدث عن نفسه: "كهرت مغامي في الشام أحد من كراهي لرسول الله ﷺ، فقلت في نفسي: لو أتيت، فإن كان ملكاً أو كاداً لم يخف عليّ، وإن كان صادقاً أتبعه".

تأملوا في هذه الكلمة، بل في هذه المحاكمة النفسية، تلك هي المعارضة السامية التي تعبر عن حرية البحث، واتخاذ كل من النقد والنظر منهجاً لاكتشاف الحقيقة والتخلص من غاشية الروم.

ثم يتابع عدي رضي الله عنه حديثه فيقول: ثم فتمت المدينة، فدخلت عليه (أي على رسول الله ﷺ) في مسجده، فسلمت عليه، فقال: "من الرجل؟" فقلت: عدي بن حاتم، فقام فانطلق إلى بي بيته، فوالت إنه لعابد في إياه، إذ لفته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوهته، فوقف لها طويلاً، تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك! ثم مضى بي حتى أدخلني بيته، فتناول وسادة من جلد، محشوة ليفاً، ففدها لي، فقال: "أجلس على هذا"، قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: "بل أنت". فجلست عليها، وجلس هو على الأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: "إيه يا عدي، لعلك إنما بمنك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجة أهله، فوالله لو شكن لمال أن يقبض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما بمنك من دخول فيه ما ترى من كثرة عودهم وفلة عددهم، فوالله لو شكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القداسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف، ولعلك إنما بمنك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في عهدهم، وأثم الله لو شكن أن تسمع بالقصور البهني من أرض بابل قد فتحت عليهم". قال: فأسلمت.

فهذا لون من ألوان النقد والمعارضة بمنكم عن خبره معها واحد من أطلالها. غير أنها كانت كما ترون، مطية بحث ومنهج دراية ابتغاء الوصول إلى الحقيقة. فلما أوصلته المطية إليها كان لا يد أن يقدرها ويلقي بعضي التشهير عندها.

١٤ كالة الطريقة، جامعة دمشق / سوريا.

إن رسالته عالمية، وكل إنسان ينهل منها حسب سعة قلبه
وشمولية قابليته. وذلك بسبب فطرية رسالته، وكون الأحكام
التشريعية فيها مواهبة للسنن الكونية وملائمة للطائفة الإنسان
القلبية والروحانية والعقلية.

أصالة التجربة التربوية في التراث الإسلامي

د. بركات محمد مراد*

الفكر التربوي الإسلامي يستند أصوله النظرية والتطبيقية من منهجية تكويمية قيمة استلهمها من بايع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة اللذين يهديان النفس البشرية والمجتمع الإنساني إلى أفقر السبل وأفضلها، وقد سخا في واقع الحياة على رفعة واسعة من الأرض والمعمورة، وما نراها ينابيعها ثرة حيرة يحكمها أن تحد التجربة الناجحة وتروي ظمأ الإنسانية وتغل مشاكلها في كل زمان ومكان.

التي ﷺ - المربي الأعظم

ولقد أرحمت حياة الرسول الكريم ﷺ بالمثل القرآنية الحية التي تحسدت في حياته الشريفة وفي توجيهاته التربوية المتعددة الأگواء وللعالم، ولا يغيب عن ذهن المثقف حقه ﷺ على العلم ووصاياه القولية وسنة العلية في هداة أسرى بدر بتعليم الأسر عشرة من أبناء الصحابة القراءة والكتابة، وأمره زيد بن ثابت تعلم العربية وغيرها، وإعاده البعثات التعليمية والوفود التربوية مثل

قيس بن عاصم، والزيفران بن بدر، وابن توبة، وسعيد بن العاص، ومعاذ بن جبل... إلخ.

ولقد تنوعت وسائل الشبوة في مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وأحلبهم بالليل والنشرج، وعدم الغضب إلا في موضعه المناسب، وصوره على إبداء الآخرين بالقول والعمل، وإقناع الآخرين بالطقن والواقع، واهتمامه الخاص بالصية والفتيان والشباب، والإفادة من المناسبات والوقائع والأحداث، وسبقه إلى العمل وحماسته له، وتغير شخصيته عن الآخرين بالفصائل الإنسانية والخبرات الشخصية... الأمر الذي شد المسلمون إليه وحببهم بأحواله، وصنع منهم خير أمر أخرجت للناس.

طلب العلم... أولى خطوات التربية

ويمكن تلخيص أطباع العام للتربية الإسلامية بأن عنايته لجأت في نزعتها المثالية في تقديم العلم والحث على طلبه، وفي الاهتمام بالفصائل الخلفية، ثم في مرونتها في طرق التحصيل، وباصطباغها بروح الديمقراطية التي قصت على الفروق بين الشعوب والأحاسن والطبقات في مجال التعليم والدين، وإعطاء الأفراد فرصاً متساوية في التحصيل لم تكمل في كثير من الأمم الحديثة اليوم.

وإن أطباع العام للتربية عند المسلمين لم يكن دينياً محضاً ولم يكن دنيوياً محضاً، وإنما كان يلازم بين الدين والدنيا، فكانت التربية تهدف إلى إعداد النشئ للحياة وللآخرة معاً في إطار الآية الكريمة ﴿وَأَنْتَ هِيَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا آخِرَ لَهُ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (يوسف: ٢٧)، والحديث الشريف: "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه".

ولقد وهب كثير من العلماء حياتهم للعلم تحصيلاً وتدويناً لا شيء سوى الإيمان بتحصيل العلم واستشعار اللذة في تدوينه، كما عسى عن ذلك الإمام الغزالي في الإحياء: "إذا نظرت إلى العلم رأيته لتبدياً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها، وفريضة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولئن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فخير إذن أفضل الأعمال".

قضايا التربية.. صلب الفكر الإسلامي

من المؤكد أنه على المدى الطويل الذي امتد حوالي عشرة قرون أي ما بين (١٠٠ - ١٠٠٠هـ)، وعلى اتساع رقعة العالم الإسلامي، برزت شخصيات تربوية عظيمة، فتح بعضهم أسلوباً تربوياً في تأليفه كالإمام الشافعي في "الرسالة"، وبعضهم تعقّق في بحوثه الفلسفية والإرادية كالغزالي والمناصبي، وكثير من الصوفية؛ وبعضهم حلل للدرجات البشرية وماهية العقل والنفس كالكندي والفيلسوف في المشرق، وابن طفيل وابن باجة في المغرب (خاصة في فحشتهما "حي بن يقظان" و"تدوير المتوحد")، حتى إن المدرسة العقلية في تفسير القرآن عيّنت بالخائب الإدراكي لدى الإنسان عناية خاصة، وفي طبعة أعلامه الفخر الرازي والنفي والبصاوي. وهؤلاء الذين أذكروا أغوار النفس وأبعاد الذات، كانت لهم تأملات تربوية، وأهداف تعليمية، وقرارد بنائية في النفس والإرادة أغنت نظراتهم الشمولية في الكون والنفس والحياة.

لقد أظهر أئمة التربية للمسلمون فهماً كبيراً للأسس السيكولوجية للتربية الخلفية، وكان لهم في ذلك طريقتان: أولها الاهتمام بالوسائل الدافعة المتمثلة في القدوة الحسنة، والبيئة الصالحة والتشجيع والترغيب والملازمة؛ والأمر الثاني هو الاهتمام بالوسائل للمناعة كالالتعاطف بالغير، والعقاب عند الضرورة.

إن كثيراً من دوافع السلوك لدى الطفل - كما تقرر التربية الحديثة - يتكون عن طريق الحرية والتفاعل مع البيئة. ونحن إذا ما هيأنا للطفل المجال الصالح، فحين يبدئ بزوده بعدد كبير من الدوافع التي تتطلب منه الرغبة في التفكير والعمل. وواجب المدرس أن يبدل اهتماماته لتتمتع دوافع الطفل ليستطيع بذلك أن يحقق الأهداف التي يتبعها من التربية.

المدرّس.. الركن الأساس في عملية التربية

ولكن استغلال الدوافع عند الأطفال ليس أمراً بسيطاً، فإنه يقتضي توهج قدرة وموهبة خاصة في المدرس. وقد رأينا العناية البالغة التي دعت إليها التربية الإسلامية في اختيار المدرس، والإفاضة في رسم ملامح شخصيته بدقة، والتشدد الذي يقضي أحياناً إلى المبالغة لاستخراج مثالية معينة في المدرس لكي يستطيع أن يهبط بواجبه كاملاً، ومسؤولياته الجسسية في تنشئة التلاميذ وتخليصهم. وإن دعوة المدرس إلى ملاحظة الفروق الفردية بين التلاميذ، ومراعاة

يستطيع أن يخرج بربيته أخلاق السوء من نفس تلميذه، ويعمل مكانها خلقاً حسناً. ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقطع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه. ثم يتحدث عن تأثير القدوة وأنه ليس كل مرب صالحاً للتأثير في تلاميذه، فإن المربي الفاضل هو من يستطيع أن يجعل من خلقه وسلوكه نموذجاً للاقتداء به، لأنه كما يقول

الغزالي: "من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً، فينبغي أن يأخذ نفسه بالشغلة على المتعلمين، وأن يحريهم بحريته، وأن لا يدع من تصح للمعلم شيئاً، وكذلك أن لا يقبض في نفسه العلوم التي لا يقوم بتدريسها، وأن يكون للعلم عاملاً بعلومه فلا يكذب قوله فعله، لأن العمل إذا

خالف العلم منع الرشد، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود، ومن استوى الظل والعود أموح^{١٩}".

المستويات العقلية وزمن الدروس

وفي مراعاة المستويات العقلية للطلاب يقول النووي: "وينبغي أن يكون باذلاً وسعاً في تفهيمهم، وتقريب الفالسة إلى أدعائهم، حريصاً على هدايتهم، وبهم كل واحد حسب فهمه وحفظه، فلا يعطيه ما لا يحمله، ولا يقتصر به عما يحمله بلا مشقة، ويخاطب كل واحد على قدر درجته، ويعتب فهمه وعلمه، فيكنفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً حقيقياً، ويوضح العبارة لغيره، ويكررها لمن لا تفهظها إلا بتكرار. ويذكر الأحكام مروجة بالأمثلة من غير دليل لمن لا يتحفظ له للدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له ويذكر الدلائل لمحتها".

وفي زمن الدرس المتوسط والمناسب للمادة العلمية يقول السمعاني: وينبغي للمعلم ألا يطيل للمحس الذي يروي به، بل يجعله متوسطاً، حلزاً من سامة السامع وملته، وأن يؤدي ذلك إلى هتوره عن الطلب وكسبه، فقال أبو العباس محمد بن يزيد المزدني: "من أطال الحديث وأكثر القول فقد عرّض أصحابه لللال وسوء الاستماع، ولأن يدع من حديثه فضلة يعاد إليها،

الاستعدادات المختلفة عندهم، تشكّل دعوة هامة وضرورية في هذا المجال. فإن المعلم إذا لم يكن مزوّداً بقدرات ومواهب معينة لا يمكن أن يكون له التأثير الشافع في تفهيم الغايات التربوية، ذلك لأن كثيراً من الصعوبات التي تواجهها نتيجة للتباين والاختلاف في خبرات التلاميذ السابقة، وتداخل العوامل النفسية وتعديدها.. كل ذلك يتطلب منه قدر كبيراً من الذكاء وحسن التصرف.

إن الإفراط في التثاق أو للدخ قد يقضي بالطفل إلى حالة من اللثافة تؤدي به إلى الاكتفاء بما عنده، وعدم الرغبة في بذل أي مجهود مما تكون نتيجته بالنسبة للطفل لخطا مستوى التحصيل لديه، ومثل ذلك يكون في الإفراط

في العقاب أو اللوم الذي قد يقضي بالطفل إلى حالة من اليأس أو عدم الاكتراث، وبذلك تصبح البواعث لدى كل منها معطلة، وليس لها أية قوة دافعة. كما أن للحدس شأنًا كبيراً في إثارة دوافع التلاميذ، ويكون ذلك عن طريق تأسيس روح الوثام والحب بينهم، والاجتماع لتبادل الرأي فيما يعرض ضم من مشكلات. وفي الواقع إن حب التلميذ لمعلمه يدفعه إلى الجِد في مادته لكي يفوز برضاه، وهذا ما تفرقه التربية الحديثة.

يقول الرشيد لمؤدب ولده الأيمن: "لا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيدك إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمن في مسامحة فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والتلاية، فإن أباهما، فعليك بالشدة والغلظة". ويتحدث "إخوان الصفا" عن تأثير القدوة في التربية وفي تكوين العادات الطيبة حين يقولون: "واعلم أن العادات الجارية بالمداومة عليها تفوّي الأخلاق المشكّلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها، والدروس لها، والمذاكرة فيها، بقوي الحظي بها والرسوخ فيها، وهكذا حكم الأخلاق والسياسة".

كما نجد الإمام الغزالي قد دعا إلى تعديل العادات الضارة، وإفلاق جلورها من النفس، مسيطرة منه لفلسفته في مجاهدة النفس، فيذكر في رسالته "أبها الولد" الحاجة إلى المربي الذي

إذا نظرت إلى العلم رأيته للدينا في نفسه فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال.
الإمام الغزالي

لا تحتاج إلى بيان أهميتها في تربية شخصياتهم، وتسمية النوازع الطيبة في نفوسهم، وهذه الدعوات المستفيضة في رعاية الصبيان وبث الخير في نفوسهم، إنما تنبثق من فهمهم الناضج لطبيعة الأطفال، وكذلك رغبته المخلصة إلى أبعد الحدود في نشر العلم والترغيب فيه، واحتمال الجهد في سبيل تربيته من النفوس، وإدراجه بين الناس، وأخيراً شدة استمساكهم بالأخلاق القويمة التي طبعت سلوك هؤلاء العلماء والمربين، وضرهم الأمثلة الرائعة في التصحية لملكات الحياة، والاعتزاز بكرامة العلم إلتزاماً للحياة البسيطة على ابتدال ثقافتهم ومثلهم وأخلاقهم التي كانت أعظم ما يتحلون به.

وكان من أبرز هذه الصفات التي اتصف بها أولئك المربون التواضع، الذي كان من أبرز دلالاته أن شهراً المعلم إلى أنه إذا غاب بعض الطلبة غياباً زائداً عن العادة، فإنه يجب عليه أن يسأل عنه، وعن أحواله وعن تعلق به، فإن لم يُخبره عنه أحد أرسل إليه، أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل؛ "فإذا كان مريضاً عادته، وإن كان في غم خفض عليه، وإن كان مسافراً تقلد أهله ومن يتعلق به، وسأل عنهم، وتعرض لحوالهم ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه، وإن لم يكن شيء من ذلك تردد إليه ودعا له".

ولعل في دراسة تراثنا التربوي باتجاهاته التربوية المختلفة ما يكشف لنا عن الثابت والمتغير في هذا التراث، وما يكسب الباحثين القدرة على محاكاة هذا التراث والاستفادة من هذا التعدد وهذا التنوع في معالجة قضايا التربية. وإن دراستنا لتلك الاتجاهات سوف تكسبنا الإدراك أنها جميعاً احتجادات في إطار الإسلام، وأنها جميعاً اتفقت على الجذع المشترك الواحد لتربية الإنسان المسلم في مرحلته التعليمية الأولى، بعد ذلك تأتي مرحلة التخصص، وهنا تظهر تلك الاتجاهات التربوية المختلفة في التربية الإسلامية، كما تعكسها كتب التراث التربوي المعروفة لنا حتى الآن. ■

أصلح من أن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له".

العقوبة... حدودها وضوابطها

أما العقاب وأضراره، فقد شغل حيزاً كبيراً من اهتمام التربويين المسلمين؛ فلم يسمحوا به إلا عند الضرورة، لأهم وأوا في الضرب للمانع فيه نوعاً من الانقياد والتشفيق، وقد لحن الفقهاء عن الضرب والتشفيق. وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً عن أضرار الشدة على المتعلمين، لأنه رأى أن "إرهاق الحد بالتعليم مضّر بالتعلم سيما في أصغر الولد، لأنه من سوء الملكة. ومن كان مراد بالعصف والفقر من المتعلمين أو المالكين أو الخدم سطا به الفهر، وصيق عن النفس في انسياطها وذهب نشاطها، ودعا إلى الكسل، وعمل على الكذب والخيت، وهو الظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انسياط الأيدي بالفهر عليه، وعلمه للكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً".

وبعد أن يملأ ابن خلدون هذه المنابر التي تنبثق عن الشدة في تكوين الصبي واكتسابه للعادات العسيرة، ينقضي الأضرار الاجتماعية التي تاتر بإيجاد هذا السلوك عند الطفل كنتيجة للعقوبة والشدة؛ فيرى أن نتائج هذه التربية النامية في مجالات القوة تؤدي ببلورها إلى إفساد المعاني الإنسانية للنصي "من حيث الاحتماج والشرم"، وهي الحمية والمداغة عن نفسه ومثله، فيصبح بذلك على حد تعبير ابن خلدون "عبالاً على غيره في ذلك"، لأن العرض الذي ينبغي أن تهتم به التربية من توجيه سلوك الفرد لمواجهة الحياة يحبو بتأثير هذه الشدة، ويصرف عن مجاله السليد. ثم يخفي في نيات الأضرار التي تصيب نفس الصبي، فتشلها عن اكتساب الفضائل والأخلاق الطيبة، وبذلك تنقبض عن غايتها ومدى إنسانيتها ويصيرها الأرتكاس.

المربي المسلم... قصة في صناعة التربية

لقد أفاد هؤلاء المربون في شرح طرق معاملة الصبيان وتأديبهم، واعتموا اهتماماً بالبا بالتبويب في طرق التهذيب ومقتضياتها، فقد دعا العراقي إلى تكريم أخلاق الصبيان الحسنة ومدها، كما دعا إلى التعامل عن أخطائهم، فإذا ما تكررت عيوب الطفل عذاباً رقيقاً، وعُتد ذلك من دقائق صناعة التعليم، "فإن التصريح بهتك حجاب الحية، ويزوت الجرأة على المحوم، ويهيج الحرص على الإصرار". إن هذه الألوان الملوحة التي دعوا إليها في معاملة الصبيان

^(١٤) أسبلا الفلسفة الإسلامية، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المصادر:

^(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

^(٢) المقدمة لابن خلدون، طبعه لبنان.

^(٣) منهج القرآن في التربية لمحمد شديد، بيروت، ١٩٨١.

^(٤) التربية عند العرب لمحمد فوزي العنقل.

^(٥) في التراث العربي التربوي لتدبير حمدان.

لقد احتضن النبي ﷺ برسائله الإنسانية، بل الوجود كله بالحب، وإن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في إطار الكلام أو بطون الكتب، بل سرعان ما انعكست في الحياة بكل معانيها وابعادها.

سناجاة أم

أمين ماسلي

منصرف الليل فررت أن أسمع كلام
الذكرور وأذهب إلى البيت لأستريح قليلاً. كان
الرفوف على رحلي منذ الساعة الخامسة فجراً قد أرقعتني
كثيراً. كنت قد أمضيت ليلة يومي في المستشفى. أعرف
أنه ليس بوسعي سوى الصبر والانتظار. نظرت بناد إلى وجه
ولدي. أردت أن أحمله إلى صدي وأقبله، ولكن حالته ما
سمحت لي بذلك. فحررت من العرفة بسرعة.

شعرت بوحدة قاسية عندما فتحت الباب ودلعت إلى البيت.
كان الحزن والصمت يهيمن على كل أطراف العرف. لم أفسأ
أن أحرز زوجي معرض ولذا لكي لا ألقفه فيصطر إلى ترك عمله
والمكوث إلى جانب. وكيف أحسره ولم تتأكد الشبهة بعد. لم
أفقد الأمل أبداً. أعرف أنه سيشفى.. نعم، أرحو أن يشفى. غذا
يصبح كل شيء، وليس لدي سوى الاعتصام بالصبر.

تناولت دواء منومةً ومعت. وبعد أن أمضيت نضع ساعات
أفقيت في الفراش مراوغة بين النوم واليقظة انتفضت على راس

س
صباحي إلى بالغاء إلى جانب ولدي لكوني
طبية لا لكوني أمّاً. كان الأختال وبهم
ولدي تحت العناية الخاصة في جناح محصن
ثم. كنت أسمع بكاءهم وأنبهم من المكان الذي أقب فيه. أدرك
أن ولدي استغرق في النوم عندما كان الطبيب يفحصه بعد أن
نظر إلى نظرة المستعينة ناطقا عبارة "أمام" بصوت يشبه الأنين.
قال الطبيب متأسفاً "إنه الشلل، لكنه لم ينتشر في كل
الجسم بعد". انعقد لسان وعجزت عن الكلام. لا أكاد أصدق،
مصاب بالشلل... لا، هذا مستحيل. تحملت جميع حلايا بدني
وما عدت أستطيع التفكير. سميت أن طبية، انقبض صدي
وأظلمت الدنيا في عيني، قلت وقد أفسد في الحروف واللق "أت
متأكد؟ لم ينتشر بعد، أليس كذلك؟" أليس بعد، وأرحو ألا
ينتشر".

نظر إلى إرضاعي "أفترض عليك أن تذهبي إلى البيت لتأخذي
فسطاً من الراحة يا دكتورة". كانت الساعة تشير إلى ما بعد

اندعشت حينما رأيتها تنقسم بوقار وتلاطف شعر طفلها المسكين بحنان وتلفت إليّ قائلة "هلنضرخ إلى الله إذن، هل تنضرخين معنا يا دكتور؟". لم تحدث أن طرح عليّ أحد من زبائني مثل هذا الاقتراح. شعرت أن هذه السيدة تعرف ما لا أعرفه. فاستجبت لطلبها قروا... الأطفال والأم وأنا... جوتنا جميعا على الأرض وضرعنا تنهل إلى الرحمة اللاهائية. كانت الأم تدعو بصوت ملؤه الاستسلام والعودة الكاملة. أحسست بمشاعر سامية مثلاً قلبي وجر وجناني، شعرت بأن الكون كله يشاركنا في دعائنا،

لاحت في ذهني بقعة ممرات للمستشفى الباردة وصورة ولدي الحبيب. أحسست كأنني تجاوزت الزمان والمسافات، وشعرت أيّ إلى جانب ولدي المسكين حفا. كان ولدي ينتم إليّ في ذلك العالم العجيب الذي دخلت فيه.

صحوحت من تأملاتي على صوت الأم المستسلمة للشفافي المتعالي... يا إلهي، ما هذا الخضوع... ما هذا الطهر والنقاء... ما هذا السمو الأبدي... فقلت لحظتها من كل قلبي "استجب دعائنا يا رب".

عندما أفت الأم دعاءها كان طفلها المريض قد استغرق في نوم عميق وغشيشه سكنية عجيبة. قالت وقد تألأت عينها بالأمل والإيمان "أرأيت يا دكتور؟ لقد استجاب الله دعائنا". ثم أجد كلمة أقولها، ظل الطفل نائما أثناء نقله إلى سيارة الإسعاف. ولما خرجت من ذلك المنزل المتواضع تركت حقيّة تقوذي كلها لتلك الأم العابدة التي منحتني ثروة لا تقدر ضمن، وقلت لها "سوف أعود ليلة الغد مرة ثانية".

انتهت نحو السيارة وقد لفتني سكنية ليلية... رفعت بصري إلى السماء وقد فاض قلبي حمدا لله... وبعد قليل بدت في الأفق الشرقي طلوع اليوم الجديد، فأنهيت صوب المستشفى. فما عدت أقصر بأيّ قلن أو خوف لئلا ولدي، إذ كان عينا تقبلا قد زال عن قلبي الليلة، وكان صوتا لئسّا يهيم في أذني بأن ولدي سيتنسم إليّ من جديد. ■

الحاتف. "هل حدث شيء، لولدي يا ترى؟". كانت الساعة تشير إلى الرابعة فحرا. رفعت الساعة بسرعة، وإذا بصوت امرأة مرتبكة وقد تعرت الكلمات في قفها "دكتور! أريد الدكتور، أرجوكم ساعدوني!".

تلفت الصعاء... ولدي نجر إذن. عندما فهمت المرأة أيّ الطيبة سكنت، وبدأت تنسرح لي حالة طفلها، فأدركت لنش أنه شبح الشلل. سجلت عنوانها وطمأنتها بقنومي حالا. وقيل الخروج من البيت اتصلت بالمستشفى لأطمئن على ولدي. فقبل لي إنه لم يتغير فيه شيء.

كانت الألفة خالية من البشعر، والهدوء قد ضرب أطنابه في كل مكان. وصلت إلى ضواحي المدينة حيث المنازل البسيطة المتناشرة دون انتظام. وبعد قليل أوقفت سيارتي، فإذا بامرأة تعمل في يدها مصباحا محمول نحو السيارة. استعالت من أعماق قلبها بصوت ملؤه الحزن والأسى "أسرعي يا دكتور، أرجوكم أسرعي!".

نظرت إلى وجهها الليل بالنعوع. فلم أستطع التمييز بين ما إذا كانت شابة أم مسنة. ضلعت عندما دخلت بيتها المتواضع من غرفة واحدة فقط. يا إلهي، ما رأيت بيتا ينسا مثل هذا البيت. لا أكاد أصدق ما رأيته، ثلاثة أطفال يشبهون الهياكل العظمية من شدة البرال وقد انقلوا حول طاولة خالية. كانت الغرفة مظلمة عدا جزء يسير قرب المصباح. وبسما كنت أنظر إلى الأطفال بإشفاق، طرق سمعي ألبن عيني من إحدى زوايا الغرفة للمظلمة. وما أن أبعثت النظر في تلك الناحية حتى رأيت طفلا قد قارب الخامسة من العمر يتألم ويش تحت خفاف رث قديم.

وعندما قمت بضمه أدركت أنه واقع في شراك شلل الأطفال. طلبت من الأم أن تنتظرنني لحظات، وخرجت من البيت مسرعة أبحث عن مكان أجري منه اتصالا هاتفيا. اتصلت بالمستشفى وطلبت سيارة إسعاف على الفور.

بعد ربع ساعة عدت إلى الأطفال مرة أخرى وقصصتهم واحدا تلو الآخر. فأنبسط أساري وكدت أطمئ من الفرح عندما وجدتهم غير مصابون بعد. وفجأة راح الطفل المريض يركي وسطه آلام وألم يمزق القلب. أمسكت الأم بيدي متسائلة، فما استطعت إخماء الحقيّة عنها، "طفلك مريض جدا، ولكن سنبدل كل ما في وسعنا حتى يشفي، لا تقلقي".

^{٥٤} كتاب ريكي. الرحمة عن التريكة نور الدين صولن.



القدس - ١٩٨٥ م / من أومات السلطان عبد الحميد الثاني

عشق الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية

المباشرة والتلقين، أشد استحكاماً

وأقوى وسجواً. فعلى قدر كثرة

الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها.

غذاً فإن طالب العلم يخي من رحلته فائدة عظيمة، "فلقاء أهل العلوم وتعدد المتساخ يفيده في تمييز الاستدلالات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أثناء تعلم، وطرق توصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان، وتصح معارفه ويخبرها عن سرها، مع تقوية ملكته بالمباشرة وكثرتها من الشتيانة عند تعددهم وتروعهم".

إن الرحلة فرصة تتاح للرحلة لكي يتفاعل تفاعلاً متكاملاً مع العلماء والطلبة الموجودين في البلد الذي يزوره حيث تتكون المحاسن العلمية، ويظهر في مواضيع متنوعة، تتوحد فيها أو تشتعب

ما من شك في أن للرحلة

في الثقافة الإسلامية مفهوماً

خاصاً ومتميزاً، فلا يستطيع الباحث

أن يستحلي مسراً إلا إذا استحصّر الأواصر القوية التي تشدها إلى الدين القويم. ويكفي أن نسبر هذا إلى أنها انخرنت عوامل التحفيز المؤدية إلى التمتع والتحرر في العلوم. ومن ثم كان "من بين أهداف الرحلة الأساسية عند ازدهارها - خصوصاً الرحلة الحجازية - التحصيل والاتصال المباشر بالشيوخ المشاهير، وروط السند معلومهم وكنتهم بواسطة ووالائهم ومخفوطهم".

عظمة المطلق وأهداف

الرحلة "لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الموائد والملكات، لقاء المشايخ ومباشرة الرجال"، علماً بأن "حصول الملكات عن



الساري- ألا يصرف بصره عن البيت حتى يصرف. فليس عجيبا بعد هذا أن يعتد الرحالون مزايًا زيارة قبر الرسول ﷺ، ثم يسترسلوا في الحكي الذي يهدف إلى استتارة انهم من أهل تحريك النفوس في اتجاه التعلق بحب هذا النبي الكريم والاستمسك بحبل الدين الذي يعت به.

ونستطيع الجرم هنا بأن توظيف الرؤيا في هذا المقام يصح أداة تربوية بالغة التأثير، حتى إن بعضهم يقول بأنه رأى النبي ﷺ في النوم، فسأله يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك أنفله قولهم؟ قال: "نعم، وأرد عليهم". فمن وحي هذه الرؤيا تولد بذرة أدبية محصورة حيث تتحول وتيرة الخطاب من حكي ووصف إلى مباحرة وتوجيه عن طريق استعمار من بلاغة الالتفات، على نحو ما نجد في هذا الكلام الجامع بين الفكر والشعر:

"فيا أيها الكبيب، انظر ما أجل صفات هذا الخبيب، وما أكرمه على الرقيب المحبيب. تالله إنك ما رأيت مثله ولا ترى، فكيف تطيق عنه مُصْطَظ؟! كيف لا تظهر عليه تلهفا وتحسرا؟! هذا وقد بصرك بالكتاب والسنة، فأصبحت متحصرا، ووعدك بالجنة، وكان لك مبشرا. فيا من يدعي حبه وقد كذب في دعواه وأقرى، أين موافقتك لأفعاله، أين أتباعك لأعماله وأقواله؟ إنك والله لا تقف من أثره أنسرا، أما بلغك أنه كان بيت من الجرع طابوا، ويصبح من التهجد ذلوا، ومن القيام خاويا، وقد عُرضت عليه الكون، فلم يرض لها نظرا، كان يقطع الليل سهرا، ويسقط لمولاه كفا معتبرا، وينكسر رأسه معتبرا، ويسأل في جلوته لأمنه أن تدخل الجنة زمرا..." وأنشدوا:

يا سائقا بطوي الشابسب والقلا
فهلّا، فسلك الحسّر في ثمّ القرى
لا تلوّنس بعسر يشرب ربتها
سطلعت بأنوار الرسول كما ترى
عصبا لقرصها تدلّس ونزّ درى
الماسيها ما داس مشكا أدفرا
شوقي لتلك الأرض شوق مولد
ولع الهكاء بظرفه فاستغفرا

فحين نرى من خلال هذه الأبيات أن حديث الشوق يلتحم التبحرا طبيعيا بتداعيات الحديث عن سلوك الاحتمال إلى البيت الله لأداء فريضة الحج، سواء في ذلك آكان هذا السلوك متحفظا بصورة فعلية أم كان مثالا ذهليا وصورة نموذجية متمثلة تتوب

حواها وجهات النظر. وعلى هذا النحو، نرى أن القرآن الكريم يُستأثر باهتمام خاص في الرحلة الحجازية مثلا؛ فقد ترد الآيات القرآنية الكريمة على سبيل الاستشهاد أو التذكيل والاحتجاج والاستئناف، وتثار أسئلة من أجل التفقه والمداينة والتدقيق، فضلا عن أن الرحلة تتحاطب بخاوي روحيا وفكريا مع فقهاء الركب وعلماء الروايا والمساجد أثناء الطريق في رحلته، وكذلك عند توقف ركبته في مصر والخرميين.

ومما يقرى الاعتقاد بأن الرحلة عند المسلمين تتخذ طابعا روحيا ودينيا، هو حرص الرحالة المسلم على أن يكون قصده من رحلته وحة الله حتى لا يكون خطفه من السفر هو النصب. ومن الأمارات الدالة على عمق الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية، انكباب كثير من الأئمة والعلماء المسلمين على السفر وانتعاشهم بتفصيل رحلاتهم. وحديثنا في هذا السياق، أن نشير إلى أن أهل المغرب الأقصى كانوا أكثر الناس رحلة وتقيدا لها، وفي مقالتهم ثمة من الأئمة للمفسرين والحفاظ للمحدثين والفقهاء.

ولا عجب في أن يستعمل الرحالة المغربي الرحلة إلى بيت الله الحرام دون أن يكرث ما يلاقيه من المشاق، طالما أنه يسعى إلى الظفر بما يرغب فيه من متوبة من الله، فيسجّ تبتلع عن أوزار الدنيا ومآثمها. ولا ضلّ في أن سلوك الرحالة في هذه الحالة هو جزء من الكل، لأن تسلط الرحالة يمثل فيه حسا دينيا مشتركا بين مختلف فئات المجتمع المسلم التي تقود إلى فريضة الحج، استجابة لتعاليم الدين الإسلامي.

رحلة الحج.. أنشواق عارمة وعواطف ملتهبة

ومهما بدت رحلة الحجاج المغاربة في ذهابهم وإيابهم محاطة بالمخاطر وعقوبة بالكاره، فإن جسورهم الروحية والثقافية إلى البقاع المقدسة، بقيت موشوكة وقوية. فلقد عظم المغاربة هذه البقاع وعبروا عن شوقهم لزيارتها، وإن هذا الشوق والحنين للأماكن المقدسة، ليس تعظيما للمكان وإنما للمرسل نزيل ذلك المكان، وفي حبه حب للرسول ﷺ. ولعل الرحلة الحسية من هذا المطلق تمثل امتدادا للشوق العارم والعاطفة الدينية للتلته، فلا يشقى غليل المسلم إلا أن يظل مستحضرا جلال المكان وقداسته، ولا يستطيع هذا المسلم أن يفارق البيت الحرام إلا بأسى وشجن. والأحب في ذلك - كما قرأ في رحلة أنس

إليها نفس المسلم على نحو مطري.

رحلة النور.. والنسر نحو المطلق

ومن هذا المطلق، نستطيع أن نقول إن الرحلة بمعناها الدين، تُختزل اختزالاً مكثفاً في رحلة الحج التي نتخذ أهاجراً لروحنا، لأنها تشدنا للمطلق. وإذا لم نستطع للمسلم إليها سبيلاً، فما جعل الله لأحد سلطاناً على مشاعره، حتى يحرمه من التشويق إليها عن طريق ابتغاء معادل روحيٍّ وعمل ضرعٍ يسمى به إلى مراتب الطمأنينة التي ما حصل بلوغها غير من شرح الحق نفسه وأشرق فيه



بالإحسان. ثم إن ما في قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للدين يرتبط بهم بعلاقات معينة، إنما هي ترشحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية.

ولا ينبغي أن نمكر الرحالة للمسلم في زمن سفره نمكر بالثأل باعتبار أنه يستند إلى معيار دينيٍّ ويتحكم إلى سلطة هذا المعيار، حيث لا يقتر بمحدّد أو يرجح رأياً على آخر إلا بحرج الإذعان إلى هاته

السلطة. ثم إنه يمتنع لنفسه هامش من الحرية في مساق معارضة للعوازم الحضارية التي يكتشفها. وهكذا فليسافر من قبيل إبراهيم الإلهيٍّ مثلاً أن يزور في مدينة الخزائر مسجد "الأي" الذي كان في الماضي كنيسة، وله أن يُعجب بحال هندسته وهما شكله، لكن الشيء الذي يثير هذا المسافر المسلم هو السلوك الذي يرمز إلى وحدة الكيان الروحي عند المسلمين باختلاف أقطارهم وحسبهم. بل إن هذا السلوك هو مما همّ الإلهيُّ بتثريه بصيغة مباشرة وصريحة لما تحدث عن نظام الصلاة في مسجد "الأي"، حيث لم يخف إعجابه بهذا النظام، وكذا بانتظام الصليين وراعتهم لأداب الصلاة في الجماعة هناك.

ولقد جمع هذا الكاتب في رحلته بين روح نقدية حضارية واضحة، واحتكام إلى المثال الديني، فكانت صورة هذا الجمع

نور الدين

الصحيح. إذن تُختزل الرحلة

الدينية في "رحلة النور والضيء" على الشاكلة التي حاولنا إثباتها آنفاً في سياق قراءتنا للسلاسل المغزوية والثقافية لكليلة الرحلة ذاك. وإن النور الذي تحدث عنه هو نور محمد ﷺ، وهو نور من نور الله.

لعل الرحلة على هذه الصفة محبة غير محدودة، فهي مسعى مسؤول بلوغ غاية جليلة. ولعل هذه العاية هي اللذة الروحية الصحيحة التي تنوق إليها نفس الإنسان، ولا تسعد إلا بما لأن هذا الإنسان سبيل على محبة غير متناهية خالق الكون، خصوصاً أن العطرة البشرية تكسّ حبا للحسنة ووداً للكمال واختاناً

تتمثل في طرح المفهوم ونزع الغم، إلا أن هذه الحركة تستلزمها هنا مجاهدة دينية وروحية تتحصل عنها فوائد علمية وتقنية، ومن أجل ذلك، فإن نعمة السفر تستحق أن يُحمد الله عليها.

ولا يتخلل الرحلة للمسلم عن مطلقاته الدينية وهو يسعى إلى بيان وظيفة السفر عنده. وهذه المطلقات كثيرا ما يتم الإفصاح عنها صراحة في استهلال الرحلة المزمع تدوينها، كأن يحمّد الرحلة ربّه الذي سبّر سيرة العالم ويقيّض له أعرافا بعضلونه، وأنصارا يحملونه، ثم يذكر الرسول ﷺ الذي حفاه أهل بلده ووده الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء.

إن السفر - كما يفهمه جل الرحّالين المسلمين - لا يراد لذاته، وإنما يراد لما يتحقق بواسطته من ثمار علمية نافعة، حيث "يزداد بالسفر والخَوْبُ الرلوي والبحار معايشة أجناس العالم الشاسعة البلاد والنظر فيما أبعدوه من المبادئ التي ليس لها نقاد، وأما من لازم وطه، ولم يفلح من أصر النار رسله، فقد عاش كالصغير الذي يهكي لغراق الخبج، وكان ضيق العطن، قليل الحصة".

من الواضح إذن أن هذا المفهوم الوطني للسفر الذي يتمثله كل رحالة مسلم يمتلك رغبة في تحصيل المعرفة وطلب الخفائي العلمية، هو مفهوم يكاد يكون مأكؤفا في المقولات التراثية لماثورة عند المسلمين. فليس مصداقة بعد هذا أن نجد فيها تكرارا لما يدل على ارتباط العلم بالسفر، إذ يفضل الفكر والعادات التي رسخها علماء الإسلام بات حليا أن السياحة تفكر وتدبر، وأن الرحلة سعي ومجاهدة وتأمّل في ملكوت الخائقي، وأن الانتفال بين الأصقاع، إن هو إلا وسيلة للتبشّر في أعلوم على سائر أنواعها. ■

^(١٤) باحث أكاديمي، مغربي / المغرب.

المصادر

^(١٥) لتقديم لاني حلدون.

^(١٦) من ملاح الرحلة المغربية، فاعنه تحليل، مجلة البحث العلمي، ع ٤٠، ١٩٩١.

^(١٧) من صلات الإنحاء والصعاء والعلم والأرواه بين رحالات تونس والمغرب، محمد

بن الحرجة، مجلة الماهل، ٦٤، ١٩٧٩.

^(١٨) سعيد القورسي، نظرة عامة عن حياته وأثاره إحصاء فاسم الصلحي.

^(١٩) رحلة ابن عثمان الككاسي إلى القدس المغرب لعمد الملوو و د. محمد بن عود،

مجلة الماهل، ع ٣٩، ١٩٩٠.

^(٢٠) رحلة الشيخ قططاوي إلى البلاد الروسية.

تقريبا مناسباً لثروة الموقف الديني الذي يعتدّ بالعقل المؤمن للمفّر بالتحديد، والمرجّح للأخذ بالمصلحة الدينية، والبعيد عن غلواء التعصب الذي لا طائل من ورائه.

القدس الشريف.. محطّ قلوب الرحّالين

ولا بد لنا في هذا السياق المتعلق بالتلاحم الغوي بين الرحلة والدين أن نشير إلى الآثار التي رآها الرحالة للمسلمون في القدس، والتي تحدتوا عنها بلغة تغمرها العاطفة الدينية. ولا تنكر في هذا الصدد أن أسباب الرحلة إلى القدس كثيرة، لكن الثروة الدينية القوية في وصف الرحّالين للمسلمين لبيت المقدس، تبيّن أن أعظم تلك الأسباب هو الدين، بل هو سبب تكاد ندرج كل الأسباب الأخرى في أطواره.

إن الحديث عن القدس وعن المسجد الأقصى يتخذ عند الرحّالين للمسلمين بعدا دينيا واضحا، هذا يفسّر المطلاع للتصوّر الرحلي المغربي، قديمها وحديثها، بأن المواضيع المقدسة تحظى بأهمية دينية خاصة. وتلك مزية نراها في رحلة ابن عثمان الككاسي إلى القدس التي اختلفت عن رحلته إلى القسطنطينية، فبين المحقق أنه ابن عثمان قد اعتمد في روايته للقدس وصفا خاصا "باعتكس البعد الروحي لهذه المدينة، كما يعكس لنا ميول المؤلف الروحية وتوافه ومعرفة الواسعة بالعلوم الدينية". ويمكن القول بأن اهتمام ابن عثمان الجغرافية المكان لم يستغنى من قدر اهتمامه بالخالق الديني.

وربما كانت كل المسالك الصعبة، وكل المتاعب المترتبة عن السفر والمخاطر التي قد تعرض إليها المسافر في اتجاه اتجاهه بالمواضع المقدسة في القدس الشريف، أشياء هيّبة بالقياس إلى حجم السعادة الروحية التي يسعى هذا المسافر إلى طلاها. ففي مثل هذه الأحوال تكون قوة الجذب الروحي أشدّ عتوا من كل العوامل البنيية، من حذب وقبظ واحتشاق، ومن كل نزاع نفسي، من فرع وارتكاس. هذه القوة هي الدافع الرئيس الذي يؤدي بالمرء إلى الاستخفاف بكل عارض من العرولوش التي تحجب شوقه إلى معاينة ما هو مطلق.

الرحلة الإسلامية علم ومعرفة

ولا غمري في أن مفهوم السفر يستلظ في ظل الرحلة بمعناه الإسلامي بكثير من الخصوصية. فللمسافر المسلم في سفره استفادة نفسية لا عتبار يمكن في أن السفر في أساسه حركة انفعالية غريزية



الخط العربي .. ذروة الجمال وقمة الإبداع

✦ أحمد عبد ✦

له خصوصيته المعروفة عن كل عصر؛ فكان كالكاكي الخي يمس ويتفرع ويتحدد باستمرار حتى بلغت أنواعه اثنين ومائتين نوعاً متميزاً مات بعضها واندر، لأنه لم يكن محاولة أصيلة للتجديد ولم يستطع أن يعكس الضروريات الاجتماعية لحياة الناس، وعابث البعض الآخر حياة الناس فضحلت في حروفه عقريه الفنان العربي المسلم حتى بلغت ذروة الجمال وقمة الإبداع، ولا نظن أن أمة من الأمم قد تلولت الكتابة بهذا الشكل فصعلت منها فناً قائماً بذاته كما حدث في حضارتنا العربية الإسلامية؛ فكان الخط العربي ولا زال أصل الفنون جميعها لأنه يستمد بلبه وشرفه من كتابة آيات القرآن الكريم.

الخط العربي من البداوة إلى الفنون

تلقى العسبر الكتابة وهي على حالة من البداوة السليمة، ولم

مما زلت أذكر كلمات أستاذ مادة المخطوط العربي في الجامعة حين كان يقول: "لا تعد أمة من الأمم تجعل من الكتابة عصباً جمالياً مثل أمتنا الإسلامية، فأنت تعلق على حدران بيتك آيات قرآنية ليس فقط للترك، ولكن جمال عطرطها وروعة تكيوها".

نعم، فلكل أمة فروعاً التي تعزها وتعتبرها جزءاً من حضارتها وتراثها. وبعد الخط العربي أهم ما يعبر به من فنونها الإسلامية والعربية؛ فهو فن عربي إسلامي برع فيه أجدادنا وتقنوا فوصلوا إلى مرتبة الأصالة والبرع في أنواعه وتصميماته وزخارفه درجة العظمة والخلود. وقد عبر الخط العربي حلال مساره الطويل عن ملامح حضارتنا العربية الإسلامية، وعكس روحها وجليتها، ومثل تطورها ومعانيها.

فقد استمر الخط العربي في تاريخ الفن العربي الإسلامي تياراً



لتوقيع الخطباء والكتابة إلى السلاطين؛ وتختصر الطومار وكان لكتابة اعتماد الوزراء والوزاب والمراسم؛ وقلم الثقلين وهو لكتابة الرسائل من الخلفاء إلى العمال والأمراء في الولايات؛ وقلم الملبور الصغير وهو لكتابة الدفاتر ونقل الحديث والتسعة؛ وقلم المؤامرات لاستشارة الأمراء ومناقشتهم؛ وقلم العهد لكتابة العهود والبيعات؛ وقلم الخرم للكتابة إلى الأمراء؛ وقلم عبار الخلية لكتابة رسائل الخيام الراجل.

هذا وقد اندثر كثير من هذه الخطوط وبقي بعضها الآخر مستعملاً إلى يومنا هذا، وفيما يلي سنوضح أهم هذه الخطوط وصفاتها واستخداماتها.

الخط الكوفي.. لبنة ودقة

يطعن كثيرون خطأ أن الخط الكوفي قد نشأ في الكوفة، لذلك قد نسب إليه، والواقع أن هذا الخط الكوفي قد سُمي هذا الاسم لتعابيه الكوفة به وليس لأنه نشأ فيها؛ حيث ازدادت حركة تلميذه وتجميل حروفه وهذا انفرد باسم "الخط الكوفي". وأرجح الأقوال أن تاريخ الخط الكوفي أنه اشتق من الخط الحجري أو الأسارى، ومسبب تسميته بعد ذلك بالخط الكوفي لأنه خرج وانتشر في مدينة الكوفة إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي مع الجود الفاتحين، وذلك في عصر ازدهار الكوفة.

وقد كان للكوفة بوعان أساسيان من الخطوط؛ نوع يابس ثقيل كان يسمى "الخط التذكاري"، وكان يستعمل في الكتابة على المواد الصلبة كالأحجار والأحشاش ويتميز بالجمال والزخرفة، وكان يحل أحياناً من القط وترابط الحروف. ونوع لتي تجري به اليد في سهولة، وهو الخط الذي انتهى إلى الكوفة من "المدنية" وكان يسمى "خط التحرير"، وكان مخصصاً للمكاتبات والتدوين والتأليف.

وقد نتج من المزج بين الحطين نوع ثالث يتصف بالرسالة والجمال، وهو "خط المصاحف" الذي يجمع بين الخفاف واللبونة. وظل هذا الخط هو الخط المفضل طيلة القرون الثلاثة الهجرية الأولى.

وقد استبطت من الخط الكوفي أنواع فنية وزخرفية قسمها

يكن لديهم من أسباب الاستقرار ما يدعو إلى الابتكار في الخط الذي وصل إليه، ولم يبلغ الخط عندهم مبلغ الفن إلا عندما أصبحت للعرب دولة تعددت فيها مراكز الثقافة ورافقت هذه المراكز بعضها بعضاً على نحو ما حدث في الكوفة والبصرة والشام ومصر؛ فأنعم القنان المسلم للخط بحسنه وبحجته ويتكرر أنوعاً جديدة منه.

وقد كان العرب يحلون إلى تسمية الخطوط بأسماء إقليمية لأنهم استعملوها من عدة أقاليم فسروها إليها مثلما تنسب السلع إلى أماكنها؛ لذلك عُرف الخط العربي قبل عصر الفتوة بالخطي والحري والأثاري، لأنه جاء إلى سلاط العرب مع التجارة من هذه الأقاليم. وعندما استقر الخط العربي في مكة

والمدنية وبدأ ينتشر منها إلى جهات أخرى عُرف باسمها المحلي والثنى.

إلا أن الخط العربي لم يقدّر له أن ينال قسطاً من التحديد والإتقان إلا في العراق والشام بعد أن فرغ المسلمون إلى التوحيد والإبداع فيه بعد أن فتح الله عليهم البلاد وأصبحت لهم عمارة وفنون واحتاجوا إلى الدواوين. وما يقال عن العراق يمكن أن يقال عن الشام كذلك؛ فقد

اتسعت رقعة الدولة في العصر الأموي، وأصبحت دمشق عاصمة الأمويين، وظهر في هذا العصر الترف والميل إلى الدخ والتخضر، ونشطت حركة العمران فظهرت الكتابات على الآنية والتحف واعتُني بكتابة المصاحف وزخرفتها.

وفي العصر العباسي ترسخت الكتابة وازدهرت الخطوط وتوسعت واحتض كل إقليم بسوء من الكتابة. وحديث بالذكر أن الأقلام (الخطوط) في ذلك العصر كانت تسمى بمقاديرها كالثلاث والتصف والثلاثين، كما كانت تنسب إلى الأعراس التي كانت تؤدّيها كخط التوقيع، أو تنسب إلى محضرها كالتناسي نسبة إلى محضره. ولم تعد الخطوط بعد ذلك تسمى بأسماء المدن إلا في القليل النادر.

وكما جعل المصنفون كتاباتهم على ثلاثة أنواع: الحري وخطي (الكنهوني)، والخطي (الدواويني)، والخطي (الشعبي). كذلك كان الأمر في خطوط العصر العباسي، فكان لكل خط اختصاصات معينة، ومن ذلك قلم الطومار؛ وكان مخصصاً



مؤرخو الفنون الإسلامية إلى "الكوفي المبسط"، و"الكوفي النورق"، و"الكوفي المنقوش المترابط"، و"الكوفي المهذب".

خط الثلث.. أم الخطوط

ويسمى خط الثلث بأحد الخطوط وأصلها؛ فلا يعد الخطوط حطاً ظاهراً (لا إذا أتى خط الثلث وهو أصعب الخطوط، يليه السبع، ثم الفارسي.. أما عن تسميته فقد كانت الخطوط (الأقلام) تنسب إلى قلم الطومار وهو أكبر الأقلام مساحة، وعرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البزوف (حيوان يشبه النمل والخل ويستعمل في نقل الأحمال)، وقلم الثلث أو خط الثلث هو مقدار ثلث هذا القلم (أي ثلث شعرات) لذلك سمي بخط الثلث، وهكذا في أسماء بعض الخطوط الأخرى كتلمث الثلثين وقلم النصف.

وينسب إلى الوزير الخطاط "علي بن مقله" وضع قواعد خط الثلث، وقد سمي خط الثلث في العصور المتأخرة بـ"الحقق"، وذلك لأن كل حرف من حروفه يحقق الأغراض المرادة منه. ويستعمل خط الثلث في الكتابة على جدران المساجد والمحاريب والقباب والواجهات والمناحيف، وكذلك في عناوين الصحف والكتب، كما تكتب به أوائل السور في المصحف الشريف، وهو خط يشتمل كثيراً من التشكيل.

خط السبع.. خادم القرآن

ينسب البعض اختراع خط السبع إلى "عبد الله الحسن بن مقله" وهو أحد الوزراء لخطاط علي بن مقله. وهناك من يرى أن خط السبع أقدم من ابن مقله بكثير. وأما كان الأصل في هذا الخط فقد طوّر ابن مقله هذا الخط إلى الشكل الذي هو عليه الآن حتى صار يختلف عن الخطوط السابقة. وقد سمي هذا الخط بخط السبع لأن الكتاب كانوا ينسخون به المصحف الشريف ويكتبون به المؤلفات، وكان ابن مقله يسميه "البدیع" لشدة جماله. ويقترّب خط السبع من خط الثلث من حيث الجمال والروعة والدقة، وهو يشتمل التشكيل أيضاً ولكن بشكل أقل من الثلث ويزيده التشكيل (النقط) حسناً وزيناً.

ويكتب بخط السبع القرآن الكريم والحدیث الشريف كما يصلح لبعض اللوحات الكبيرة، فقد كتب به علي التحف المعدنية والحشية وعلى الجص والرخام.

وقد حظي خط السبع بعناية كبيرة في العراق في العصور العباسية، وقد تولّع في تحسيسه في عصر "الأمانيّة" حتى عرف

بـ"السبع الأماني"، وهو الخط الذي كتبت به المصاحف في العصور الإسلامية الوسطى، وحل محل الخط الكوفي سواء في كتابة المصاحف أو النقوش على جدران المساجد، وأصبحت السيادة تخطي السبع والثلث. ويقتار خط السبع عن خط الثلث في أنه يساعد الكاتب على السور بقلمه بسرعة أكثر من خط الثلث، وذلك لصغر حروفه وتلاحقها مع المحافظة على تماسق الحروف وجمانها.

الخط الفارسي.. فن وهوية

كان الفرس قديماً يكتبون بالخط "الفهلوي" أو "البهلوي" نسبة إلى "فهل" الواقعة بين همدان وأصفهان وأذربيجان. وعند الفتح لبلاد فارس انتقلت الكتابة والحروف العربية إليهم، وأصبحت الكنيسة النارية هي كتابتهم الرسمية والقومية، وحلت الحروف العربية محل الحروف الفهلوية الفارسية.

وقد اهتم الفرس بالخط خاصة في أوائل القرن الثالث الهجري؛ حيث قرّبت شوكتهم في الدولة العباسية في فارس والعراق، فعمدوا إلى خط السبع وأدخلوا على رسوم حروفه أشياء زائدة فميزته عن أصله. ويسمى الخط الفارسي أيضاً بخط "التعليق"، وقد كتب هذا الخط كتب الأدب والدواوين.

أما عن خط التعليق الذي يكتب به الفرس اليوم فهو نوع من خط التعليق القديم المخصص للأعمال الرسمية، وهو المسالط عندهم حالياً. وقد برع الفرس في خط التعليق فأدخلوا بزرهونه ويحسنونه حتى امتاز بجمال حروفه وقيلها. كما أن حروفه صارت مختلفة السمك والطول تبعاً للقاعدة والدوق، كما تمتاز حروفه بدقتها وامتدادها. وهو لا يشتمل التشكيل ولا التركيب وهو في ذلك يشبه "خط الرقعة". ويستعمل الخط الفارسي كذلك في كتابة عناوين الكتب وللحلات، وقد سمي بالثعلبي لأن حروفه معلقة بين خطي السبع والثلث أي أنه يجمع بينهما. ويستعمل الخط الفارسي الآن للكتابة في إيران والهند وأفغانستان وباكستان.

ويوجد ثلاثة أنواع من الخط الفارسي: "الفارسي العادية" وهو المعروف حالياً بالتعليق؛ و"خط شكسته" وهو خط صغير وزفيح، وتعني كلمة "شكسته" المكسور ويسمى بالتركية "قزمته" تعليق؛ و"شكسته أمير" وهو خليط من النوعين السابقين.

خط الرقعة. إيقاع سريع

يعد خط الرقعة (منظم الرام) من الخطوط المتأخرة أي حديثة

أن هذا الخط ما زال يستعمل حتى يومنا هذا في مراسلات الملوك والأمراء والرؤساء، وكذلك في كتابة البرقيات والمراسم والأوصية والربيعة وطاقات المعاهدات، فضلا عن قيمته الفنية في اللوحات والنماذج التشكيلية.

الطغراء - ظل جناح الطائر المقدس

"الطغرة" أو "الطغراء" أو "الطغرى" هو شكل جميل يكتب بخط الثلث على شكل عصوص. وأصلها علامة سلطانية تكتب في الأوامر السلطانية أو على النقود الإسلامية أو غيرها، ويذكر فيها أسم السلطان أو لقبه. وقيل إن أصل كلمة "طغراء" كلمة تنارية تحتوي على اسم السلطان الحاكم وقتها، وإن أول من استعملها السلطان الثالث في الدولة العثمانية "مراد الأول".

ويرى في أصل الطغراء قصة مُنادها لها شعار قديم لظائر أسطوري مقلّس كان يقدسه سلاطين الأوغوز، وأن كلمة طغراء جاءت بمعنى ظل جناح ذلك الطائر.

وأقدم ما وصل إلينا من نماذج شبيهة بالطغرلوات ما كان يستعمل في المكاتبات باسم السلطان المملوكي الناصر حسن بن السلطان محمد بن قلاوون ٧٥٢ هـ.

وقد أدّى كتابة الاسم على شكل الطغراء إلى التصرف في قواعد الخط، ويكون الطغراء في الغالب مزجاً من خط الديواني وحظ الثلث.

خط التاج.. ذهب التاج وبقي الخط

وقد ابتدع هذا الخط في العصر الحديث علي يد الخطاط المصري محمد محفوظ الخبير الفني في لحاكم في عهد الملك فؤاد، وكانت فكرة هذا الخط هو وضع إشارات في أعلى الحروف مثل التاج للملكي. وقد رجع استخدامه مع حروف خط النسخ لأنها أحلّ وقعا فيه من سائر الخطوط وإن كان قد استعمل مع خط الرقعة. ■

(١) كتاب وبحث، إسلام أون لاين نت / مصر - المصادر

(٢) لخط العربي: أصوله، مبادئه، انتشاره، عفيف عيسى، دار الفكر، دمشق.

(٣) لخط العربي: رحة التحسين والتجميل، باسم فؤاد، دار الكتاب، القاهرة.

(٤) لخط والكتابة في الحضارة العربية، يحيى عويش، دار العرب الإسلامي، بيروت.

(٥) الخطاطة: الكتابة العربية، عبد العزيز الدلال، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الظهور، وقد اجترعه ووضع قواعده الأستاذ "ممتاز ملك مصطفى أفندي للمستشار"، وكان ذلك في عهد السلطان "عبد المجيد خان" (ت: ١٨٦١ م). ويرى البعض أن شأنه ترجع إلى عهد السلطان "محمد الفاتح".

ويمتاز خط الرقعة بقصر حروفه، ويحتمل أن يكون قد انشئت من خط الثلث والنسخ. وخط الرقعة خط جميل يمتاز باستقامة حروفه أكثر من غيره من الخطوط، وهو لا يتحمل التشكيل أو التزكيز، وفيه وضوح وقرأ بسهولة، وبعد أسهل الخطوط جميعاً كما أنه يعد الأصل في الكتابة اليومية لدى الناس، حيث يستعمل في المراسلات والكتابات اليومية وعناوين الكتب والمجلات وفي الإعلانات التجارية، وذلك لبساطته ووضوحه وبعدّه عن التعقيد.

ويوضح أحد الخطاطين محاضرات هذا الخط فيقول: "وقد جاءت بساطة خط الرقعة لكون حروفه حاضرة لتشكلت لخطي السبعة، فهي سهلة الرسم معتمدة في ذلك على الخط المستقيم والقوس والدائرة فضلاً عن طابعه حركة اليد السريعة، إضافة إلى كون حروفه واضحة القراءة ذات شكل جميل".

الخط الديواني.. لم يعد سرّاً

ترجع نشأة هذا الخط إلى العصر العثماني، وقد سمي هذا الخط بالديواني لاستعماله في الديوان العثماني. وقد كان هذا الخط قديماً في الخلافة العثمانية سرّاً من أسرار التصور السلطانية لا يعرفه إلا كاتبه أو من يدر من الطلبة الأدكباء، لذلك كانت تكتب به جميع الأوامر الملكية والإعامات والفرمانات.

وقد انتشر الخط الديواني في عصرنا الحديث انتشاراً كبيراً بفضل مدرسة الخطوط العربية الملكية بمصر، حيث سيطر وطوّر فيه الخطاط المصري "مصطفى بك غزلان" حتى أطلق عليه في مصر الخط الغزلاني. وينقسم الخط الديواني إلى نوعين: "ديواني رقعة" وهو ما كان حالياً من التشكيل والزخرفة، ولا بد من استقامة سطوره من أسفل فقط "ديواني حلي" والجلي عني الواضح الظاهر، وهو ما تدخلت حروفه وكانت سطوره مستقيمة من أعلى ومن أسفل، ولا بد من تشكيله بالخرقات وزخرفته حتى يكون كالمقطعة الواحدة.

ويتميز الخط الديواني بتشابه حروفه مما يصعب على غير المتخصصين قرائته أو الكتابة به. والخط الديواني جميل ومشيق للعين، وتكون كتابته الدقيقة عادة أحمل من الكثيرة. ومن الطريف





النموذج الإسلامي لتحرير المرأة

د. د. محمد عمارة

حيثما من نسي واحدة، وسأوى بينهم جميعاً في حل أمانة استعمار وعمران هذه الأرض عندما استغلّفهم حيثما في حل هذه الأمانة. كما سألوا بينهم في الكرامة عندما كرم كل بي آدم، وفي الأهلية والتكاليف والحساب والخزائن. مع إخطاف على فطرة التمايز بين الأمانة والذكورة لتتم نعمة السعادة الإنسانية بشوق كل طرف إلى الطرف الآخر المتميز عنه - ولو كان ثلثاً مماثلًا لما كان "أحر" ولما كان مرغوباً لغو إليه القلوب - ولكون هذه المساواة في الخلق وحل الأمانة والكرامة والأهلية والتكاليف والحساب والخزائن والاشترار المتضامين في أداء مرائص العمل الاجتماعي العام... لتكون هذه المساواة هي مساواة تكامل التمايز، لا مساواة التمايز المتماثلين والمتمايزين.

ويطلق هذا النموذج الوسطي من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم الذي جعل الرجل بعضاً من المرأة والمرأة بعضاً من الرجل ﴿لَا أُبَيِّعُ عَمَلٌ بِكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى تَعْصِيكُمْ مِنْ نَفْسٍ﴾ (النساء: ٣٤). فكل طرف هو لباس للطرف الثاني ﴿لَبَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَّاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧). وقد أفضى بعضهم إلى بعض ﴿وَإِذَا قُضِيَ تَعْصِيكُمْ إِلَى تَعْصٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (النساء: ٢١). وقامت روابط هذا الميثاق الغليظ - سرياني الفطرة - إلتصاق لحم جميعاً على سود عقد وعهد للزوجة والرحمة والسكنى والسكنية ﴿يَوْمَ آتَاهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١). كما يطلق هذا النموذج الوسطي - في تحرير المرأة وإنصافها -

في قضية المرأة وتحريرها لن يختلف أغلب العقلاء على أن المرأة قد حُتِلَتْ تاريخياً وحين عصرتنا الراهن وفي كل إختضارات من للظالم والقيود أكثر مما حُتِلَ الرجال. ومن ثم فإن أغلب العقلاء لن يخطفوا على أن للمرأة "قضية"، وأن تحريرها - وإن ارتبط بتحرير الرجل - إلا أنه يحتاج إلى كثير من التمييز وكثير من الاختصاص وكثير من الاهتمام. لكن الأمر الذي يثير الكثير من الاختلاف - بل والخلاف - على النطاق العالمي، هو "النموذج الأمثل" الذي يحقق التحرير الحقيقي للنساء.

فهناك النموذج العربي المتطرف، نموذج الحركات الأنثوية الغربية التي تريد تركز الأثني حول ذاتها في عالم خال من الرجال، تنور فيه الأثني ضد الرجل ضد الفطرة المسوية التي فطر الله الناس عليها، وضد كل القيم والديانات، وهو نموذج بلغ في تطرفه وضلوه حد الجنون. وهناك نموذج الجور والتقليد الذي حمل ويحمل التقاليد الرائدة على الدين، فيثنها ويكرسها ويقدمها حين لكان تحرير المرأة في هذا النموذج هو تحريرها من كل دعوات ودعوى التحرير.

النموذج الوسطي في تحرير المرأة

وهناك النموذج الوسطي المتوازن للعرس حقيقة التحرير الإسلامي للمرأة. وهو الذي يطلق من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم في تحرير المرأة وإنصافها والمساواة بين النساء والرجال الذين سؤى الله سبحانه وتعالى بينهم عندما خلقهم

مع بقائها أُنثى، تسعد عندما تكون مسوية وتكسر وتباهي بأبوتيتها، وتفر وتهرب وتغفل من "الاسترجال"، كما يسعد الرجل السوري ويفخر ويباهي برجولته، ويفر من "التخنت" و"الأثونة"... ينطلق أيضاً من التطبيقات النبوية لتصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم، تلك التطبيقات التي حررت المرأة للإسلمة، وأقبلنا من "الوأة" للماضي والمعصوي، وجعلنا طاعة فاعلة في بناء الأسرة والدولة والأمة والخصارة، ومشاركة في سائر ميادين إقامة الدين والدنيا منذ اللحظات الأولى لإخراق محبس الإسلام. كما ينطلق هذا النموذج الواسطي أيضاً من الاجتهاد الإسلامي الحديث والمعاصر الذي أولى المرأة ما تستحق وما يجب لها من العناية كطرف أصيل في المشروع النهضوي المنشود الذي استهدفه تآمر الإحياء والاجتهاد والتجديد مستنداً إلى القرآن الكريم وإلى تطبيقات التحرير الإسلامي للمرأة، في مواجهة تصورات ومفادح الغلو الإسلامي والغلو العلماني جميعاً.

والمودج الواسطي الذي يمثل وسطة الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية الثلاثي حرره الإسلام منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه... ويدعو هذا النموذج إلى اتقاد هذه النماذج الريادية أسوة وقوة ومثلاً.

ريادات نسائية في فجر الإسلام

● فحديثة بنت خويلد رضي الله عنها نموذج من نماذج الثمرات الطيبة لهذا التحرير الإسلامي للمرأة.. به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامية الجديدة والوليدة.. وبه كانت الناعمة -بالعقل والحكمة والمثال وأيضاً بالعواطف المعطاة- لرسول الإسلام، ودعوتها وأمتها.. حتى كان عام وفاتها "عام الحزن" والحداد للجماعة للموتة كلها.

● ومجدبة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت نموذجاً من نماذج ثمرات هذا التحرير.. تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة؛ وهي من أخطر التحولات في تاريخ الدعوة والدولة والأمة وتشارك في تنفيذ هذا الحدث الأعظم؛ وتشد أزرها زوجها النبل الرئيس العوام فتصلي له بيته وتزوره له حمله وترعى فرس جهاده وقائه وتقاتل معه في بعض الغزوات؛ وثري ولده عبد الله بن الزبير على البطولة والقداء والاستشهاد؛ وتعارض وتجاه الطعنة، من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي.. ومع كل ذلك تظل أسماء هذه هي الأُنثى التي تتراب بالحشمة الإسلامية والشفرة، فلا تلبس ما يكشف أو يشف، ولتعاظ على

مشاعر الغيرة للفرطة عند زوجها.

● والقضاء بنت عبد الله القرظية العلوية رضي الله عنها كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامي لتحرير النساء. سبقت إلى الإسلام؛ وبايعت على الدخول فيه وفي أمتة ودولته؛ وفيرت بالعقل والرأي والحكمة؛ واشتغلت بتعليم القراءة والكتابة حتى كانت معلمة لخصمة أم المؤمنين؛ ورويت أحاديث رسول الله ﷺ.. وكانت تحاوره، وأحياناً تلومه فيعتذر إليها ﷺ، وبلغت -في المشاركة في السلطة والدولة- أن ولاها عمر بن الخطاب "ولاية الحسبة" أي "وزارة" للتجارات والأسواق، وأوزانها ومعاملاتها.. تراقب وتغاسب، وتفصل بين التجار وأهل السوق، من الرجال والنساء.

● وأم هانئ فاحشة بنت أبي طالب رضي الله عنها كانت من ثمرات هذا النموذج في تحرير النساء.. أسلمت عام الفتح (٨هـ) ومع أن زوجها قد فر بشركه إلى حجاز يوم الفتح، فلقد أجارت -أي أعطت الأمان- لرجلين من قومه كانا مطلوبين للخصاص الإسلامي؛ ووقت -لنفس- في وجه أحياء علي بن أبي طالب الذي هم بتقييد الخصاص فيهما فصار عتبه حماية لمن أجارت حتى لم يستطع منها فكاً؟ واستجاب رسول الله ﷺ لعهدهما وإجارتها قائلاً: "قد أحرأ من أحرأ، وأمتاً من أمتت يا أم هانئ.. لكن لا تعضي علياً، فإن الله يعضب لعنبيه..". فأطلقت

أحباها فناعه رسول الله ﷺ قائلاً: "يا علي غلبت امرأة!..". ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامي بأم هانئ الثروة أن عطيتها رسول الله ﷺ لنفسه زوجاً وأماً لمؤمنين بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك الذي فر بشركه إلى حجاز، فأعلنت عن خطية الرسول -أبذ حم وحكمة بالغة- وقالت: يا رسول الله أنلت أحب إلي من سمعي وبصري، وحسني الزوج عظيم، فأحسني إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق الروح. فقبل المصطفى ﷺ اعتذارها واحترم رغبتها في التفرغ لأولادها.. صنع ذلك وهو القائد المنتصر في لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التي يستبشع في مثلها الفاتحون كل الحدود والسنود. غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية، واحترم حرية أم هانئ، وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم.

● وعائشة بنت أبي بكر الصديق -زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين- رضي الله عنهما، ثمرة من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للنساء؛ كانت الزوجة الرفيقة الحبيبة؛ وراوية الأحاديث وحافظة السنة؛

وعندما جُرحت جرحها الغائر في كتفها نادى الرسول على أبيها: "أمك، أمك! أعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت". ثم نادى على أحد القارين كي يعطيها ترسه لترس به.. وقال لها في إعجاب: "من يطبق ما تطيقين يا أم عمار؟". ثم قام تسيية بنت كعب يوم أحد حير من فلان وفلان.. ما أثلقت بكلمة ولا ضحلاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني.. أما هي، التي غادرت أرض المعركة يومئذ وفي جسدها ثلاثة عشر جرحاً فلقد قالت لرسول الله ﷺ: ادع الله أن ترافقك في الجنة.. فقال ﷺ: "اللهم اجعلهم رفاقني في الجنة"، فقالت: ما أبالي بعد ذلك ما أصابي في الدنيا.

• وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها كانت هي الأخرى واحدة من الكواكب الثلاث حرره الإسلام فأضأت في سماء تحرير المرأة المسلمة. شاركت مع أم عمار في عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ببيعة العقبة؛ وشهدت يوم الفتح الأعظم (فتح مكة)، وقالت يوم يرموك في فتوحات الشام، وقتلت تسعة من الروم بعمود حيمتها؛ وكانت من ذوات الرأي والعقل والحكمة والدين، خطيبة فصيحة تقرأ أفعاد المبار إذا خطبت، وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتزعم المطالبة بما

هن من حقوق، حتى لقد سميت في كتب السنة والسيرة بـ"وفاة النساء"، أي رسولة وزعيمة النساء في المطالبة بحقوقهن لأهل البيت إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد متحدثاً باسم نساء المسلمين، فقالت: "أنا وإفدة من خلفي من النساء يقتل بقولي وهن على مثل رأيي. إن الله قد بعثك للرجال والنساء. ولقد علينا عليك الرجال، فأجعل لنا يوماً من نفسك، تعلمنا فيه". فوعدهن رسول الله ﷺ يوماً، لقهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. وروى عن رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين حديثاً.

تلك مجرد إشارات لأمتة من النماذج التي جسدت توعية التحرير الذي أجّره الإسلام للمرأة منذ فجر البعثة النبوية وإشراق شمس حضارة الإسلام. وإذا كانت هذه النماذج شاهدة شهادة صادق على نوعية التحرير وموجده، فإن الآفاق الواسعة التي بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التي ثلثت فيه.

والفقيهات التي تراجع الفراء والرواة والفقهاء والمجتهدين؛ والمفتوة في الشؤون العامة؛ والمتنوفة للفنون التي تعرضها فرقة فنية من الأحياء - في مسجد النبوة؛ والممارسة لرياضة الجري مع زوجها ﷺ أثناء السفر إلى الغزو والجهاد.

• وحصة بنت عمر بن الخطاب -زوجة الرسول وأم المؤمنين- رضي الله عنهما، كانت من فترات هذا التحرير الإسلامي للمرأة؛ سبقت إلى الإسلام منكمه وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة؛ وكانت شاعرة وخطيبة فصيحة وراوية للحديث. واتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبي بكر الصديق فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان،

فُسِّخت منه المصاحف التي وُزعت على الأنصار؛ وشاركت بالرأي في تدبير شوري الأمة بعد استنهاض أبيها العاروق؛ ووثته تقرأ وشعرًا وخطبت في الناس عنقابي أبي بكر وعمر؛ وتحدثت عن سنة الإسلام في الاختيار الشوري للحلفاء والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم.

• وتسيية بنت كعب الأنصارية -أم عمار- رضي الله عنها، كانت ثمرة ناجحة متألفة من فترات هذا التحرير. شاركت في بيعة العقبة الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية الأولى، فمارست في ظلال الإسلام وتحريره للمرأة قيمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرناً؛ وشاركت في بيعة الرضوان -تحت الشجرة- عام الخليفة (٦٤هـ) -على الحرب والقتال- عندما شاع أن فريشاً قتل مندوب المسلمين إليهم، عثمان بن عفان. وكانت أم عمار ممن أوفى ما عاهد عليه الله.. ففي يوم أحد كانت ضمن أهل من عشرة هم الذين صمدوا لجيش الشرك فحموا رسول الله ﷺ من القتل.. ويومئذ رآها الرسول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه، وهي ممشرة قد ربطت ثوبها على وسطها تقاتل دونه وتتصدى لآل من فمينة الذي اندفع نحو الرسول ﷺ قائلاً: أين عمداً لا تجوت إن محمداً.. رآها الرسول وهي تتلقى في كتفها الطعنة التي أراد ابن فمينة توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها حراحها. وكان معها كذلك في هذه الملحمة أيها الذي ترف فقصبت نرفه ثم استهضته للقتال.

النموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررن الإسلام منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقبوة ومثلاً

إن الحضارة الإسلامية التي جسدت الإحياء الإسلامي في مختلف ميادين الإبداع الحضاري، لأن الإسلام هو الإحياء في مختلف هذه الميادين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤)..^{١٤٤} إن هذه الحضارة الإسلامية قد أفرزت أعلام العلماء في مختلف ميادين العلم بما في ذلك الفلك والطبيعة والبحر والحساب والفلسفة والرياضيات والطب والصبلة...إلخ. - قبل أن يمر قرن من الزمان على إشراق خمسين الإسلام، تاهيك عن العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية والأدب والفنون. بينما الحضارة الغربية في أوروبا قد ظلت ستة عشر قرناً قبل أن تشهد عالمياً واحداً في الفلك.

وإذا كان الإيمان الإسلامي، وفقه الدعوة الإسلامية، وشورى هذه الدعوة قد بدأت جميعها بامرأة وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.. وإذا كانت علوم الإسلام قد عرفت إريادات من النساء منذ فجر الدعوة وعلى امتداد تاريخها الطويل.. فإن الحضارة العربية لم تعرف عائلة في النصرانية ولاهوية. أما هذا الذي ستمه في النهضة الأوروبية تحرير المرأة فلقد جاء هو الآخر -تحرير العلماء- على أنقاض سلطان الدين والكيسة واللاهوت. ولذلك جاء رد فعل لاديني بحرق المرأة من الدين بدلاً من أن يحررها بالدين.

لذلك كانت رسالة العقل المسلم هي حماية المجتمع للمسلم من الوقوع في مستقع التقليد، تقليد الآخر الغربي. وسواء أكان التقليد للتمودج الغربي للعالي في منافسة العطرة والقيم، أم كان تقليداً للعادات والتقاليد الاجتماعية البائنة، فإنه مردول. وفي التمودج الإسلامي الوسطي لتحرير المرأة بالإسلام التمودج المتساوي الذي يحرر المرأة مع الحفاظ على فطرة انشمار بين الأمومة والذكورة، تلك التي فطر الله الناس عليها، من الذكور والإناث جميعاً. فهو تحرير تأسعده به المرأة بدلاً من أن تشقى بالتمودج الغربي لتحرير، أو تظل حبيسة العادات والتقاليد الراكدة التي تعملها البعض زوراً وهتافاً على حقيقة الإسلام.. ■

يوم انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد وانخرطت في رعية دولة الوليدة ١٢٤,٠٠٠ من المسلمين والمسلمات. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي ترأت في مدرسة النبوة وتغير عطاياها في مختلف ميادين العطاء، رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء. أي إن التحرير الإسلامي للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة إنان التحرير الإسلامي في أقل من ربع قرن من الزمان، وهي أعلى نسبة للريادات النسائية في أي ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات.

وإذا كانت رباح الجاهلية قد أعادت بعض التقاليد والعادات التي سقت وسادت مجتمعات ما قبل الإسلام، فإن هذه التقاليد الراكدة لم تستطع غلبة إنجازات التحرير الإسلامي للمرأة رغم معاليتها هذه الإنجازات، فظلت روح هذا التحرير وثمراته ملحوظة حتى في عصور التراجع الحضاري الذي أصاب عالم الإسلام. فظلت حيالاً الاجتماعية الإسلامية زاهرة بتمادح النساء للحيثات والقيادات والشاعرات والأدبيات اللاتي بلغ شأوهن في العلم الخد الذي تلمذ عليهن وأخذ "الإحابة" العلمية منهن عدد من كبار أئمة الفقهاء والحفاظ والمحدثين والمحدثين. وعندما رصد عالم التاريخ والتراجم والطبقات "عمر رضا كحالة" أعلام النساء اللاتي تفوقن وبرزن وتقدمن صفوف الصفوة في تاريخنا الحضاري، إذا به يترجم لثلاثة آلاف من أعلام النساء في المحيط العربي وحده، وهو محيط لا يمثل إلا خمس أمة الإسلام.

صحيح أن نسبة الصفوة وأعلام النساء في تاريخنا الحضاري كان يجب أن تكون أضعاف أضعاف هذا العدد، وذلك قياساً على حجم وتعداد صفوة وأعلام النساء في عهد النبوة. لكن يظل هذا التعداد شهادة صدق للتمودج الإسلامي في تحرير النساء، ووسائلاً على صدر حضارة الإسلام تباي به كل الحضارات. فلقد استعصى هذا التمودج على الفرقة أمام العادات والتقاليد الراكدة التي عادت فسادت في حقبة تراجع الحضاري، فظل فاعلاً على امتداد تاريخ الإسلام، ثم عاد لتألق معالته المتميزة في اجتهادات مدرسة الإحياء الإسلامي الحديث والمعاصر.

^{١٤٤} كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الإحساسية في فن بديع الزمان النورسي

د. عثمان سليمان*

ل

على أنه لا بد من التنبه إلى أن إحساسه بديع الزمان النورسي ليست التلافية تمل على كوامن شهوية حسية، إنما وحدانية لا حسية، شعورية لا جسدية، روحية لا مادية. وإحساسية النص النوري تبرز في الكيفية المكثفة التي استخدم بها النورسي الأصاغ والتلوينات اللغوية، إذ نشأ كان الدافع إلى التعبير قلباً، كان لا بد للأفكار أن تتلس من الكلمات والصيغ ما يشي بلونها. من هنا تواترت العتوت وأصحاء الإشارة والموصول، يقول: من بين وسائل الإشارة والتصوير لفظ "الذي"^(١)، وألفاظ الخبر والحال أو ما في معناهما كالدل والتمييز والتوكيد. ولهما يلي سنرى كيف غدت الجملة النورية -وضحة هذا الأمر- تستغرق حيزاً يسع المظهر والسطرين وأكثر، بل والفقرة أحياناً كثيرة.

استغلال الخبر

التوسع في استغلال الخبر المكاني من أبرز ما يعطي لأدبية النورسي صيغتها التشكيلية، ذلك لأن الكلمة في الخطابات التشكيلية هي القيمة المتسعة. وعلى حسب إشباعها وإيفائها بما تتطلبه الحاجة إلى التعبير وأداء الرسالة يكون موقعها في اللوح والمشهد. من هنا رأينا النورسي يعطي لتقنية الانتشار في الفضاء العناية اللازمة، ورأبها يخرج -كلمة اقتضى الأمر- عن طبيعته البيانية الاقتصادية، فيسترسل ويستطرد ويغفل نفس السياق. ذلك لأن النورسي كان

كانت فلسفة الإحساسين (أتباع المذهب الإحساسي) تقوم على علامة استنثار الضوء ولغفل (الحركة والسكون). هاتواهم تنطلق إلى الراوي والمروح المادنة، وتسعى لاحتواء نسائم الزم في سيولته المستلثة، باعتبار أن اللحظة هي إحساس شارد، بغفلت ولا يتيح للربشة أن تقيض عليه.

لقد كانت لعبة الإحساسيين حينها يرتد بالإنسان إلى صفاء البسكرة الأولى، وإلى عهود كان الزمن بعداً مضمناً لا يعرف مقاييس إلا مقاييس الطبيعة دفاءً، فالانتماء بالحركة واللون كما مارسه الإحساسيون هو اهتمام بالغيب وإن لم تنقص عن ذلك نغمة أفكارهم. إنما الفنان المسلم حين يتعاطى مهمة التمرس بمشاعره لا يكون موصولاً بالكون صلة مبهمة، ولا تستعربه فيه الظواهر الوحشية الساحرة، وهو وإن نظرت من منابع عذوبة ما أبدع الله وسخر، إلا أنه يجد في مهمة تعظيم قدرة الخلاق المدع وإكثار ملكوته ما يتجاوز لذة الشهوة الحسية. من هنا كانت إحساسية المسلم تسيبها وجمداً وليس مجرد التلاذد حسي عَفَلٍ. وعلى نحو ما فوّت لعبة الألوان والظلال في آثار الإحساسيين، سبلح بديع الزمان معهد النورسي -رحمه الله- بدوره الجسد في كتاباته نوعاً من الإحساسية الخطافية التي صيّت مشحوناً من المشاعر في قوالب روحية توثّكها المضامين وتسامت المقاصد.

تحدث "ماكوسون"^(١٧) عن نخوة الشعر وعن شعرة النحر، وقصد بذلك إلى طبيعة التركيب الذي تراعى فيه أحكام المعيار النحوي أو قد لا تراعى أحياناً نشداناً للخصوبة ودعماً للشعيرة.

ولهم أن النورسي مارس التوصيف بصورة لا جدال فيها، إغراءً عن وزع تولين لإدراجت بواعثه، فهو كما أسلفنا كان من خلال التولين يستجيب للنواحي الوجدانية وهو من جهة أخرى كان يعزّز العلة اليداغوجية التي يجهز بها حطابه من أجل أن يضمن له الانتشار بين الجماهير، ذلك لأنه كان يفاعل بليم روحية تحريكية اقتضت منه أن ينحو منحى التشكيل والتولين تقريباً لعاليه من الناس، وتعميقاً لحقيقة تلك المعالي من خلال صيغها بالولن. لذا رأينا كيف ليث يبدع الرمان بمد من مساحة الشعوت رغبة منه في استيفاء العاية التوصيلية. فالشعوت كانت من أهم فواعل التشكيل والتصوير في خطاب النورسي. وكما نلاحظ الرسام بين الألوان يخلق الانطباع الخليلد، أو كما يراوح بين الأصباغ ليعطي التعاكس المطلوب، فكذلك يصنع النورسي مع التولينات اللغوية، إذ يخرج الصورة وقد ليست يستهنا اللونية على نحو يكفل لها أن تعاطب المتلقي بالكيفية المناسبة والأسلوب المطلوب.

ولقد رأينا يوظف النوال لرسم الجو الذي يهيئ بالفكرة أو المتولد عنها، وهذا بواسطة تغزيره منظومة المعاني المستمرة، بحيث يأتي ترادف العبارات وجهاً من وجه تعين اللون. "نعم وينون نوره تيكسي الوجودات لك إعداما، والأثوار ظلمات، والأحياء أمواتا، والملائكة ألاما وآثاما، ويعبر الأوثاء بل الأشياء أعداء، وما البقاء بنونه إلا بسلام والكمال هاء، والنعمر هواء، والحياة عذاب، والعقل عقاب، وتيكسي الألاما آلاما"^(١٨). فتنحية الفرشاة في رسم هذا المناخ الحدادي استخدمت دوال معبرة برزها على الفور لون السواد الذي أراد السياق أن يعبر عنه. ومن الواضح أنه فضلاً عن المادة اللفظية التي أعربت عن طبيعة الموقف هذا، فقد استغلت الخطابة فاعلية البلاغة لاسيما الضافي: الأثوار ظلمات / الأحياء أمواتا / الملائكة ألاما / الأوثاء أعداء... فالتناسب قام على هذا التداخي الذي سلسل الدوال وجعلها تفتح إلى عائلة ذهنية متداخلة عكسا وأطرافا. فلفظ "تيكسي" مناسب في الإيعاز للفاظ إعداما، ظلمات، أموات، آلاما، أدواء، بلاء، هباء، عقاب... لذا كانت متمركزة الأسرة الدلالية الواحدة. والجميع هذه اللفاظ هذا الشكل، أفادت منه التعبيرية وصنعت صيغتها. بل لقد تردد لفظ اليكاه في مستهل الفقرة وختتمها، وما ذلك إلا

يلد قيمة الخطاب وأن الكلمة هي وسيلته الوحيدة للوصول إلى الأخصر، ولذا كان حرصه كبيراً على أن تأتي الصورة التي تُشكلها الكلمات في مستوى من الاكتمال والتعبيرية بحيث تعي بالغرض التعبيري وتؤدي وظيفتها على نحو فعال.

وخطته في التعامل مع اللغة أن يرصد الدوال الأكثر قدرة على تصعيد شحنة الأداء، فقرة الإفاضة تأتي من معشلة الخطاب عامة، لأنه خطاب يتحرى الأصالة التعبيرية الدقيقة ولا يعأ بالإنشائية الجوفاء أو الزخرفة الفارغة. ثم تأتي من اختيار الكلمة المتأخية التي تلمد المتلقي بصوتة محسوسة من المعنى المقصود، ليجد المتلقي نفسه يتلقى محاولة أبلغ ملموسية من كلمة تأخية في السياق، ثم من تأخية ورابعة، إلى أن يراه قد استغند الفكرة كلية واستوعبها، فيترك عندئذ أن دوال الخطاب النوري لا تُستخدم بارتجال أو اعتباطية توصيلية، ولكنها تُستخدم بوعي عميق وتحرص على أن تجعل القارئ يتلقى من كل عناصر الخطاب اللفظية خطاً ملموساً من الإفاضة، كالصيف يستشعر حرارة كل من وقف في طاوور التشريفات يضافه. "إن سر المناسبة بين الأشياء صير أكثر الأمور كائماً التي تراه في أنفسها، هذه في تلك، وتلك في هذه؛ فكما أن قطعة زحاجة تركب صحراء واسعة، كذلك كثيراً ما تذكرك كلمة فاة خيالاً طويلاً، وتختل نصب عينيك هيئة كلمة حكاية عجيبة ويحول بذهلك كلام في عالم للنال المثالي"^(١٩).

التولن بالوصيف

قلنا إن التعبيرية بالنسبة للأدب هي نوع من التشكيل الخطائي يوائم العواطف وأحوال السوح الروحي والوجداني التي يعرب الإنسان من خلالها عما يسكنه من أحاسيس وأفكار ورؤى. ومما يستجله في هذا الصدد أن يبدع الرمان النورسي يستخدم التولن في خطابه يسجاء كبيراً والتولن الخطائي كما أسلفنا يعول على ترجيح لوازم لغوية أو متممات دلالية منها الشعوت، ذلك لأن الشعوت تتسجم مع طبيعة فن التشكيل. يقول النورسي رحمه الله: "إن ذكر الأوصاف الكثيرة سبب للتجسيم في الذهن والحضور في العقل والمحموسية للنحال"^(٢٠).

إن الشعوت هي مادة التولن التي تتحولها الصورة الأدبية إلى مشهد تشكيلي محسوس، إذ مثلما تعتمد الفرشاة هذا اللون أو ذلك للتعبير عن عاطفة من العواطف، فكذلك يصطبغ الخطاب للمفهوم (الوصفي) من أجل أن يعين تولينية شيء ما أو صيغته. لقد

ليعكس المروءة التي يحسها الكاتب إزاء فكرة الجحود.

إن ثنائي الكاتب في تمييز المفومات البلاغية على هذا النحو يؤكد رغبته في استيقاظ القلوب، فاستغلال الاستطراد ومرادفة المعاني، ثم إن الوثيرة النحوية للتراسلة رفقا ونصبا "الموجودات" (إعدامًا / الأتوار / ظلمات / الأحياء أمواتا / للثناؤ الآما وأتامًا..."، قد أضفت على السياق مستوى ثمادتي به نيرة الأسمى على حال واحدة، كما استغلت الغرسة جانب التحاسن الصوني تصويرا لختائرية المشهد: هباء.. هواء / عذاب... عذاب / آلام... آمال... إلخ.. وهو ما استكمل به المشهد ذكته.

تمازج المشاعر واللغات في حسه

في قصيدة "بكاء القلب"^{٢٧} يكتشف النورسي عن جانب مهم يخص الإبداعية والوجدان الفني الذي كان يهتد به أعماله؛ إذ استخدامه للغة العربية -في الكتابة والخطاب- لا يحول بينه وبين الإعراب بأصالة عن مشاعره، فلم يكن الخطاب بالعربية -على ما يبدو- يشترط على حلوص تلك للمشاعر، ولم يكن يعبر منها أو يترور، فأحاسيسه التي ظلت للغة الأم تترسب ها، كان يجدها هي حين ينقلب إلى التعبير بواسطة اللغة العربية.

ولا شك أن قارئ هذا النص النظامي سيستشعر خصوصية الأسلوبية التي ميزت ساه، فكأنها في بعض مواطنها نص مترجم، ومما دلل على أن النورسي كان وهو يكتب يجد نفسه مورع القدرة الخطافية بين أكثر من لسان، ولم يكن ذلك ليعرفه، بل لقد كان يحس في الإنسان، لأنه طرّع الأسلوب العربي للدرجة الارتحال، وبات يصوب به مشاعره دوما تكلف أو تصعب. فلذلك يلمس أحيانا في النص ثقلانية كتلقائية الأطفال، وتلك مرة للنص وليست عليه؛ لأن الشعر الجميل ظل دائما يعطش عيون الأطفال وأحاسيسهم ويعبر عن بكارة حواظهم كلما أراد الشاعر أن يأتي بالعذب والندى، والقد: "اعلم أن قلبي قد يهكي في أبنائه العربية بكاء تر كذا تنهيج للحيط الخرين التركي، فأكتب كما بكيت:

لا أريد، من كان زائلا لا أريد،

أنا فان، من كان قاتلا لا أريد،

أنا عاجز، من كان عاجزا لا أريد،

سلّمت روجي للرحمن سواه لا أريد،

بل أريد، حبيبا باقيا أريد،

أنا فرة، فمما سرمدنا أريد

أنا لا شيء ومن غير شيء،
الموجودات كلها أريد...

صحيفة الوجه فهرس للخصوصية الفارقة

حسّ التصوير يتبدى لدى النورسي في تلك الحساسية التي كان يجدها حيال صورة الماهيات والأشكال والمشاهدات، لاسيما ما يخص الإنسان.. هذا الكائن الذي عبر الخالق من خلال الهيئة التي قددها فيها عن كمال ما أبدعت قدرته وهما ما أنشأت إرادته.

لقد خلق الله الإنسان وجعل الوجه بعلى حسنه، بل إن وجه الإنسان هو فهرس العلامات التي تغير صاحبه، والرمام لما في طلعته من سمات. ومن دلائل قدرة الله التي لا تحصى أن الوجه لا يمكن أن يعكس إلا ماهية صاحبه، فخطوط الوجه خريطة ربانية فارقة بين البشر رغم لعمدودية أعدادهم. والنورسي حين يدبر تفكيره في مثل هذا الجانب من عظمته الخائفي فليس باعتة إلى ذلك هو الترف أو البحث عن الخبث المستطرف، ولكنه يفعل ذلك لأنه يمتلك الوراثة الفني والتشكيلي الذي يميز الفنان؛ إذ اهتمامات الرسامين وصناع اللوحات يستغرقها مثل الوجه، وتغير خطوطه الواضحة والخفية؛ ذلك لأن الإبداعية تبرز أظهر ما تبرز في تخريج ملامح الوجه للبر، الوجه الذي لا يمكن أن تقرأ أسطوره بسهولة وسطحية. والشاهد في هذا هو ما يثوره فيها وجه "موناليزا" مثلا: "اعلم أن وجهك يتضمن من العلامات الفارقة عدد أفراد الإنسان الماضية والآتي، بل لو وجد الغمر لنتاهي من الأفراد لتصادف كل واحد في وجهك ما يميز عنه، مع التوافق في أركان الوجه، كان الوحدة تجلت من وجهك في كثرة غير متناهية".

الرؤية النورية تصير هنا عن وازع تصويري تشكيلي لا يغترة أن يقرأ في صفحة الوجه آية من آيات الاختلاف المظهري التي هيأها الله لعباده، وأن يترسم فيها مظهرا من مظاهر الإعجاز السدال على مطلقية إبداعية الله، بسلا إن الخطاب الذي عالجه النورسي هذه المسألة قد استرشد مادته التشبيهية من قاموس فن الزخرفة والنقش: "كأن الوحدة تجلت من وجهك في كثرة غير متناهية"^{٢٨}، بل إن هناك من العبارات ما يميل إلى الخلق التشكيلي ويوعز عفرداته كقولته: "وجهك يتضمن من العلامات الفارقة"، فمثل هذا التعبير (العلامات الفارقة) مما ينور على ألسنة الرقامين والنقاشين والسميانيين.

ولقد استرسلت الإشارات إلى الوجه في نصوص النورسي،

هكذا يفكك النورسي ظاهرة الزمن - باعتبار أن الزمن هو
 هاعلية الحياة الأساس - من خلال تمثيلها في سياق حي من العلاقات
 والأحداث المشخصة (الحياة - وجه - أنا - لمحي - نتيجة...
 إلخ). يضع أماناً مستويات لا تخص من الرمنية الزمن الأرضي
 (لحظة واحدة من الحياة)، الزمن القدسي (الزمن الطويل)، فيما
 تضمن قوله "إنّ لها ألفاً من النتائج" سلاسل أخرى من الرمنية
 التي يقتضيها منطق الأشياء والعوالم وفق مواقعها وظروفها. فرمنية
 الصورة غير زمنية المراتب على ظهر سفينة بركوب الزهرة. ذلك
 وجه من الأوجه التي تمثل فيها النورسي فاعلية الزمن وكتابتها
 وما تمثله الحياة بالنسبة لسيولة الأبدية؛ إذ الحياة ليست إلا لحظة
 عابرة وإن بدت للأدعي طويلة، إذ الأمور نسبية والخالق سبحانه
 وتعالى هو مصدر هذه السيولة التي لا تعلم لها متطلقاً ولا منتهى
 على التحديد.

الضوء والملمعان

يمكن رد الخلفية التصورية التي يصدر عنها النورسي والمرتبطة
 بمجال الضوء والتألق والملمع والترقق التي تشيع في مخاطباته إلى
 الأماكن والبيئات التي أقام فيها، لا سيما خلال تلك السنوات
 التي عاشها متعلّقا إلى الانعقاد والحرية في عيمه بقرية "بارلا"
 بُصِّحَ بُحْرُها العجبة وبُسمِها. إذ لا بد أن تكون تلك البحيرة
 التي اشتهت في هبتها ومنظرها الصفحة الثمينة أو المرأة الكبيرة
 المستقطبة لتوهجات الكواكب، قد تركت أثرها في صنع ذلك
 الإدراك اللامع الذي تعكسه صور النورسي وتشكيلاته التي
 طفحت بها نصوص الرسائل: "رمت حجرا في وسط حوض
 كبير تقول للدارة المشككة من وفور الخير: واسعة.. واسعة..
 واسعة.. كلما تلتفتك بواسطة تنظّاه دائرة الوسع.."^(١٦)

فمدومة النظر إلى تلك المرأة الصغيلة الممتدة كأنها البحر، لا
 بد وأن يكون قد نقش في موجد النورسي تلك الألفة التي جعلت
 مشاهد الصفاة والإهماس والتروع تلازم محياله وينطق كثيرا من
 مشاهد ورسوماته النصية، بل لقد ظلت صورة للعبة والرشعة
 والقطرة والمرأة وغيرها من المواد المتجانسة مع أشياء هذا الحقل
 الشقيف دوال تدور وصورا تترجع في متن الرسائل.
 فالخطاب ينقل إلينا مشاعر الكاتب من خلال الإهماسات
 المتولدة والإشارات التي تنعكس عليها آثار الأضواء والالتمعات
 المبعثة من المجال من حوله، بل والناعبة من داخل ووجه؛ إذ إن

إذ رأى النورسي في الوجه مجالا دالا على الوحدانية، وكل ذلك
 لأن النورسي فكان تشده المساحات ومواضع التعبير سواء في صورة
 الإنسان أو في ملكوت الله: "فسيحان من أدرج وكتب الغير
 الشتهي في صحيفة الوجه، بحيث يُقرأ بالصر ولا يحاط بالغل.
 نعم يقرأ بالنظر وأختا مفصلا ولا يُسرى بالنظر إجماله، بل ولا
 بالغل أيضا. فهو المعلوم المُصر، المجهول المُطلق، والمشهود الغائب.
 فمحال ممراتب أن يكون هذا التحالف المنتظم للميد في نوع
 الإنسان، والتوافق المُطرد المتطائر في أنواع أتمال الخنطة والعب،
 وكذا التحل والنمل والتسك، بالتصادف الأعشى والاتفاقية
 العوراء... كلاً ثم كلاً، إنه لصنع عظيم، بصير، عليم، حكيم."^(١٧)

الجمال النوردي

"ومن آيات حُسله أنّ... رَمَى قلوب العارفين بأنوار جماله المجرّد"^(١٨).
 إن مثل هذه التعبيرية التي تلور في مخاطبات أهل الفن والمحيطة على
 عالم التشكيل لا تقتض تواجها في سائر رسائل النورسي، فهو مثلا
 حين يتحدث عن الإنسان باعتباره مُنْشَمَّ الصنعة الإلهية يقول:
 "اعلم أنّك صنعة شعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوح الدلالة
 على صفات الصانع بحسب الحكمة النقاشة، ومتصد العلم
 المختار.. وصورة القدر المرشّم الخير ما يناسب بياك."^(١٩)

الوجود كتابة لا لمحي

الفكر الديالكتيكي ساهم في طبع ملكة النورسي بطابع الثراء
 بحيث تأتي لهذه الملكة أن تكون على دينامية تمثلية زاهرة، ترى
 في الصورة الواحدة إمكانات من الصور لا تعد. بل لقد تأسس
 بغيره الإكثافي على رؤية وجودية ثنائية نابعة من فهم يُعمّق ظاهرة
 النماء التي تطعم الكائنات العضوية وتجعل حيالها دقومة مستمرة
 تتحول ولا تلبث: "إن وجود كل ذي حياة هو بمثابة كلمة، تقال
 ثم تكتب ثم تعيب، دون أن تبيد."^(٢٠)

إنه هذه الروح التي تتعد إلى ما وراء الحس والسطح، قد أدرك
 أن الكون كما هو موط بضمان وكفالة حياة المحلوقات، هو أيضا
 منوط ومتكفل بواجبات أخرى لا يلبسها يودعي لخالفه تسييحا
 وهذا ومباركة وتعظيما: "شاهدت أنه إن كان للحياة وجه واحد
 متوجه إلى "أنا"، فإن لها مائة وجه متوجه إلى الحي المحيي، وإن
 كانت لها نتيجة واحدة تعود إلى أنا، فإن لها ألفاً من النتائج تعود
 إلى حالي، لذا فإن لحظة واحدة من الحياة أو أنا من الوقت ضمن
 هذه الخفة كاف جدا، فلا حاجة إلى زمان طويل."^(٢١)

تواصله مع عوالم الملكوت بصورة اعتكافية يجعل الروح على الصناع دائم واحترق مستمر لأنها تستضيء بنور التسامح، وكل ذلك يقدو مشاعراً تنبسط عبارات وأقوالاً وتشكيلات عطفية تصطبغ جاليتها بألوان النضبة وبروحها المعنوية معاً.

بهذا أن يقرر الورد أن سحرة "بارلا" مثلاً كانت مسرح تأملاته، وأن الشمس كانت تتفقد على صفحاتها الرقعة فتتلاها المنظر بلون الذهب... بهذا ذلك يتحول الخطاب ذاته إلى مشهد وشاشة تتسع أضيائه (أي كلماته)، تشد عينيك وتوجه بصرك لتتوقف عند المعنى المشرقة التي يُحليها لك نظر الكاتب، فيجعلك تعان التائق اللواري والتكسر الصوتي فوق سطح النص، وكأنك أمام بساط من زجاج أو من قصباء. ذلك لأن اهتمام الكاتب يتركز على لغته إلى الحال التأثيرية التي يعتمدها هو نفسه ونعي بها مظهر التفرق الصوتي والتائق والصقالة الطافحة.

وستجد هذه الحسية تنطفي أكثر على نصوص بعض الأحرار من الرسائل مثل "اللمعات" بحيث طفت الحسية والنضوء والنعومة على جسد النص. كما أن دوال اللسان والإشارة والتفرق قد جاءت عناوين وأسماء لفصول، أو أحالت على تبرعات نصوية في رسائل كثيرة. ويمكننا أن نرى في تغلغل صورة المرأة في وجدان الورد على هذا النحو إعراباً منه عما لنفسه من ضغينة، ومن روح مرآية تنظر إلى ما وراء الأشياء وتستغل انعكاسات الحقائق التي لا تلتقطها عيون الآخرين.

اسم الثور

إطلاق اسم رسائل الثور على إبداعاته يوحي بتسرع ثملي قائم على المطابقة بين الدال والمذلول، فالعناوين عنده حقائق لا يمارات. من هذا المنطلق نقول إن كلاماً من مضمون الرسائل وشكلها ثورانيان يحكم منطق قاضي التشكيل في جنس مضمونه؛ لذا كان الورد لا يرى في متون الرسائل مجرد حروف وكلمات ونصوص عطفية تلتفها الأسننة، إنما أحرمة من نور ومشاعل مقددة، وشبهها متوهجة، وقاديل تضئ بهن زينة لا شرقية ولا غربية.

ليست للمحاطبات في ديوان الرسائل أقوالاً صماء تستغل عن الفهم؛ فهي رسوم وصور وتشكيلات تأخذ بيد السامع والقارئ بكامل الأدب، وتسير به ملاء الأسنن وتنتهي به إلى مجلسه من الخلق الثورية، وتنبئ عن أحوال وأفعال ووقائع محسوسة تتفاعل القلب والعقل والكيان.

فلقد أدرك الورد مدى أهمية الأمانة المراسلة لا تخصي من النصوص البكواء العبياء ظلت تتعاطاها عبر المراحل والعهود من غير ما جدوى ولا طبع في تغيير ما يقال الناس من أذى وحقة.. نصوص كانت على مستوى من النعم بحيث لم تفلح في تحريك القلوب ولا في حر الضمائر وإطلاق العرائم من عقابها.

لذا كان من الطبيعي أن يسلب الورد أعماله ليس بلاغة ثورت النعاس وتثر في النفس شهوة الاصطلاء، ولكنها بلاغة نقادة ذات تأثير سحري، وقدرة تفعيل جذري... بلاغة لا يتعذر عليها اقحام الأبواب الموحدة وفتح مغاليق القلوب المغلف. لقد كانت الرسائل فرق إغانة ووحدات ميدان تث الوعي الخالص بين الأوساط وتشر الفكر المحي بين الناس، وتبدل التوعية والأمل للمعبرين بكل حرارة ومصداقية وإسنادية.

الخبر والصوت

من الدقائق التي يلفت إليها الورد حقيقة الصوت؛ إذ الصوت مادة، لكنها غير جسم بنيل إنما تنفذ إلى الفراغات على اختلاف حجمها. فعلاقة الصوت بالمضاء علاقة تناسب، إذ الصوت ينفذ في الكهف نقادة في أكن يعرضه لا تكاد ترى بالعين. ونفس الشيء بالنسبة لألفاظ القرآن، فهي تلازم الأحواف والوقالب بخاساتها المختلفة: "كما أن لفظة قرآنية مثل "الحمد لله" عندما تنسج ثلاً لكهف الذي هو غشاة أذن الجبل، فإنما ثلاً في الوقت نفسه ما تشبه الأذن الصغيرة حذا تعرض؛ فنستقر النقطة نفسها فيها معاً".^(١٤)

(١٤) جامعة وهران / الجزائر.

المواضع

- (١) إشارات الإعجاز لسعيد الورد، ص ٧٣.
- (٢) إشارات الإعجاز لسعيد الورد، ص ٦٩.
- (٣) إشارات الإعجاز لسعيد الورد، ص ٦٩.
- (٤) من أبرز التشكيلات، له نظريات في الشعرية وتنبيل الخطاب.
- (٥) لقوى العربي الورد لسعيد الورد، ص ٢١٠.
- (٦) لقوى العربي الورد لسعيد الورد، ص ٢٨٥.
- (٧) لقوى العربي الورد لسعيد الورد، ص ٢٩٨.
- (٨) لقوى العربي الورد لسعيد الورد، ص ٢٩٨.
- (٩) لقوى العربي الورد لسعيد الورد، ص ٢٩٣.
- (١٠) لقوى العربي الورد لسعيد الورد، ص ٢٩٩.
- (١١) الشعاعات لسعيد الورد، ت: إحسان قاسم الصاغي، ص ٨٠.
- (١٢) الشعاعات، لسعيد الورد، ص ٨١.
- (١٣) لقوى العربي الورد لسعيد الورد، ص ١٣٩.
- (١٤) الكلمات، لسعيد الورد، ص ٤٥٠.

البيئة في القرآن الكريم

د. إبراهيم أوزدمير*

علاوة على تلوث الاندماحي في البيئة كالفقر والجوع والمجاعة والفقر والقمع والأطفال المشردين في الشوارع وإدمان المخدرات وغيرها من القضايا. وعندما يُنظر إلى أساس تلك المشاكل، يظهر أن غالبيةها العظمى ذات مصدر إنساني. ولهذا يرتبط كثير من المسلمين قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَرِّ إِنَّمَا تُسْلِي أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ﴾ (الروم: ٤١) بقضايا البيئة، إذ من المعلوم أن أكثر ما يفسد التوازن في الطبيعة هو الاستهلاك الزائد والإسراف وهدر المصادر الطبيعية بشكل مفرح.

النظرة القرآنية نحو البيئة

لقد غيّر القرآن على مدى ثلاثة وعشرين عاماً -وهي الفترة التي تنسزل فيها- نظرة مخاطبيه نحو العالم، وشكّل فكرًا كونيًا

مشكلة قبيحة من أهم القضايا التي يراجهها الإنسان في العصر الحديث، فهذه المشكلة لا تحدد الإنسان فحسب، بل تحدد حتى الأجيال القادمة في عيشهم ضمن مباح صّحي. وبصفتها تلك تظهر أماننا كقضية عالمية، والإنسان المعاصر الذي شهد اكتشافات مذهلة في مجال العلم والتكنولوجيا لم يستطع التعامل مع الطبيعة بشكل متوازن.

وعني بـ "البيئة" كل الظروف الطبيعية التي يعيش فيها مع الكائنات الأخرى. فكما أن منزل الإنسان وحديقته والموا الذي يستنشقه ولقاء الذي يشربه والمدينة التي يعيش فيها والناس الذين يعيش معهم تشكل جزء من بيئته، فإن الغابات والجبال والأنهار والبحار التي يشترك فيها السائر هي الأخرى جزء من بيئته. وعني بقضايا البيئة فساد المناخ في عالم الطبيعة الذي يحيط بنا، وانقراض أنواع الحيوانات، والاستهلاك الزائد وتلوث الطبيعة،



هـ- الرعد والبرق

ما شأوه بعين جديدة بإصرار وإطراء كإشارات على وجوده سبحانه وتعالى.

وحينما يوبخ الله تعالى الكافرين يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عِلْمًا مِّمَّا يَتَدَبَّرُونَ أَنعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۖ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِنَاغٍ وَمِنْشَارٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (س: ٧١-٧٣).

والواقع أن النسيء الذي يريده المولى تعالى في مقابل إنعامه على الإنسان تلك الحيوانات ما هو إلا شيء بسيط يستطيع أي إنسان أن يقوم به، وذلك بأن يذكروه جل وعلا ويشكروه ويقول: ﴿شُحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزمر: ١٦-١٧). وبلفت القرآن النظر إلى الخيل أيضا فهي مخلوقات أصلية وهامة حيث يقسم بها المولى عز وجل: ﴿وَالْأَعْدَابُ ضَبْحًا ۖ فَالْمُورِبَاتِ فَزْخًا ۖ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۖ فَأَنْزِلُنَّ بِهِ نَاقًا ۖ فَوَرِشَتِ بِهِ جَمْعًا﴾ (الشعر: ١٥-٢٠).

وفي سياق قصة سيدنا سليمان يشير إلى وجود تواصل بين النمل والإنسان وبين النمل وبعضه البعض فإنه عليه السلام كان يتقدم بحبسه من الجن والإس والطيور، وكان النمل يتبعه نحو واد به حشد كبير من النمل على رأسه قلعة، فقالت بلعة مقبولة ومتداولة فيما بينها من خلال تواصل وغامض خاص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَخُوْدُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨). ففهم سيدنا سليمان ما قالته النملة، وتبسم وشكر ربه على تلك الشعة التي أنعم بها عليه حيث علمه لغة الحيوانات.

والقرآن الكريم قد ذكر في كثير من الآيات الطيور أيضا؛ إنه يتعجب من أولئك الذين يطلبون من الله إشارات وجود الله تعالى، فيسأل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُوَفَّقَهُمْ صُفَاتٍ وَلَيْقِضَنَّ لَهُمْ فَمَا يَتَّبَعُونَ إِلَّا لِرَّحْمَنِ إِنَّهُ يُبْكِي سَائِغًا ۖ يَصِيرُ﴾ (الشع: ١٩).

المخلوقات أمانة الله لدى الإنسان

فأساس مفهوم الطبيعة الذي يتيه القرآن، يعتمد على أن جميع الكائنات (الحية وغير الحية) بما فيها الإنسان مخلوقة لله سبحانه؛ فالإنسان والطبيعة هذا المفهوم ليسا عنصرين منفصلين أو غريبين عن بعضهما البعض، بل هما أمانة خلقت من قبل الخالق نفسه.

الرعد والبرق والصواعق -من منظور قرآني- مخلوقة لله، تذكره وتُسبحه، فالقرآن الكريم قرنها بالملائكة ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (الرعد: ١٣). فهذا الرعد الذي يكون مع البرق ويُسْمَعُ بعده مدويا في الفضاء كأنما يسرع القلوب من مكانها.. وهذا الانشقاق والصوت الرهيب للشحوب من أفق إلى أفق آخر يسبح الله ويعظمه معلنا نعمته ورحمته وعظمته وكبريائه.

و- الجبال

إن الذي خلق الكائنات وخلق السماوات بعمر عمده هو الذي خلق الجبال أيضا وأساسها على الأرض فلا يفتقر الإنسان ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي وَأَنْهَارًا﴾ (الرعد: ١٣). وأيضا فالجبال كانت تسبح الله مع داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَنشَأَ دَاوُدُ مِنَّا مِثْقَالًا بِجِبَالٍ أَوْيَ مَعَهُ وَالْطُّيْرُ وَأَلَّا لَهُ الْحَمْدُ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (ص: ١٠). فكانه يصل أثناء التسبيح إلى درجة القرب إلى الله والبعد عن نفسه حتى إن كل الحجب التي بينه وبين الكون تزول، وتستكمل خواصه بخصائص الكون وتحدد تسمياته بتسمياته، ونتيجة هذا تردد الطيور والجبال تسابحه.

ز- الأنعام

وبلغة القرآن الكريم إلى أن الحيوانات هي أجزاء هامة في المنظومة الكونية المتكاملة، وأنها أهم أمثالا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا نَحْنُ نَتَّبِعُهَا ۖ إِنَّ أَشَدَّ قُرْبَانًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨). أي إن الحيوانات مثل الإنسان خلقت في بادئ أمرها من تراب، وأجلدت مظهر الحياة، وتم تحديد أوزانها وأحجامها، حسب تقدير معين، وهي تعيش بجماعة مثلكم، وتتقارب أو تتباعد من بعضها البعض وفق قوانين حاكمية ونظم خاصة في دائرية التقدير الإلهي، وهي في حسانتها المربية والحقيقة تعد أمثالا لكم.

والقرآن الكريم يريد من العرب وهم أول المحاطين أن ينظروا بلغة وتفحص إلى الإبل التي عرّفوها جيدا وهي جزء لا يتفصل عن حياتهم اليومية، فيقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الشع: ١٨).

والمحاطيون بالقرآن الكريم كانوا يرون بكل تأكيد إلهامهم، ولكن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى الطبيعة وكل

وينبغي على الإنسان أن يتعامل مع الطبيعة والمخلوقات التي فيها بالمسؤولية وعدم الإسراف.

وقد قام إسماعيل ر. فاروق بتلخيص جميل لمحاول علاقة الإنسان بالطبيعة كالآتي:

- إن الطبيعة ليست ملكاً للإنسان، وإنما هي ملك لله تعالى.
- إن الطبيعة مسخرة للإنسان ويمكنه أن يتصرف فيها، ولكن من خلال قواعد واضحة.
- لا بد للإنسان أن يتصرف مع الطبيعة بصورة أخلاقية لدى استفادة منها واستخدامها.
- على الإنسان أن يبحث في العلوم الطبيعية والنظام العام لها ويحاول فهم القوانين الدقيقة الرائعة المودعة فيها، والسبب في كل هذا هو أن "الأمانة" (خلافة الله في الأرض) عرّضت على السماوات والأرض والجبال ﴿فَأَنبَأَ أَن يَحْمِلَهَا وَأَخْفَقَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأعراب: ٧٢). وإفساد التوازن البيئي جريمة تتناقض مع مفهوم خلافة تُفسد وتدمر نظام الطبيعة، لأن الخليفة يعني الوكيل، والوكيل لا يجوز له أن يتسبب أمانة الموكّل الذي قام بحمل نظام متكامل لهذا العالم وجعله يمثل هذا التناغم والتناسق، والذي يقوم بتحريب وإفساد هذا النظام والتناغم لا شك أنه وكيّل سيء.

فالإنسان له حق الاستفادة من الطبيعة، ولكن لا يعني ذلك استخدامها بصورة غير لائقة. وعليه أن لا ينسى أنه -مختصّ بالأمانة التي يحملها- مسؤول عما يفعله وأنه سبحانه يربو ما على ما اقتره تجاه غيره من كل المخلوقات ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزال: ٧٥). كما أن رسولنا الكريم قد لله إلى ذلك بقوله: "تَزِدُّونَ الْحَقِيقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَفَادَ لِنِشَاءِ الْخَلْقَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْآنَاءِ." (درود سليم).

إسراف مصادر الطبيعة (ثم)

ومن هذه الزاوية فإنه يتضح أن الله تعالى هو الذي قدر النعم كلها وأن التفكير عليها هي مسؤولية أخلاقية. والقرآن الكريم يلوم الذين لا يسرون نعم الله كآتي من آياته، ولا يتفكرون فيها أو لا يحسبونها، وفي النهاية يكفرون بنعم الله بدلا من أن يشكروها.

إن الإسراف ليس مجرد هدر للمصادر فحسب، بل هو في

الوقت ذاته عدم احترام الخالق سبحانه والذي هو صاحب كل هذه النعم وحافظها. والإسراف لا يؤثر علينا فحسب، بل على الأجيال القادمة أيضا. وقرن الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القصص: ٢٨) بنسبه إلى أن على الإنسان الحفاظ على هذا "القدر" وعدم الإحلال به.

فجميع الكائنات مخلوقة لله تعالى، والله تعالى هو الذي زين السماوات بالشمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بمختلف الأزهار والأشجار والحدائق وغيرها، وهو الذي يجري الماء على الأرض ويمسك السماء بغير عمد وينزل الغيث، وهو الذي أوجد النباتات والحيوانات وأزواجها وحقق لها التكاثر، وهو كل ذلك هو الذي خلق بني الإنسان.

إن الطبيعة مملكت للولي عز وجل، ونحن أماء وخلفاء لله على وجه الأرض، ولنا مالكن لها حتى نتصرف فيها بما نشاء وبدون ضوابط. وكل شيء فيها هو آية على وجوده تعالى. وعلى حين ينهنا القرآن الكريم باستمرار إلى ذاك البعد الرباني للطبيعة، فإنه يعود ويؤكد على أن الإنسان الذي هو خليفة ومسؤول عن كل أعماله الحسنة منها والسيئة سوف يحاسب يوم القيامة عن كل تصرفاته حيال هذه الأمانة. إن يوم الدين لن يكون للحساب على العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والمجتمع وحسب، بل وعلى العلاقة بين الإنسان والطبيعة أيضا.

وخلاصة القول: إن التسلم الحقيقي بهتم بحماية البيئة وحماها وكل ما بها من أحياء، لأنها مملكت الله فهو الذي خلقها وهو الذي ائتمنا عليها. إنه التزام واهتمام أخلاقي أكثر من كونه التزام قانوني.

وأما الحيوانات الموجودة في هذا العالم فهي أمم مثلنا. وكل ما في هذا العالم بمسبح الله بنسائه الخاص به، ويتحرك نحو تنفيذ أوامر الله تعالى.

وقوانين الطبيعة ما هي إلا تنفيذ لأوامر الله تعالى. إن الإنسان بصغته خليفة الله له الحق في أن يستفيد من الطبيعة بشرط أن يخضع لله تعالى، وطائما تخضع لله، خضعت له المخلوقات. ■

٥٥ كلمة الإلهام: آخرة / تركاء، والتقال مرجم من اللغة التركية.

إن ميلاد فخر الكائنات ميلاد للإنسانية كافة.
فقبل تشريفه كانت الدنيا في مأتم عام. وبفضله تميز
النور عن الظلام، وتحول الكون إلى كتاب يقرأ،
فكان كل شيء قد بعث من جديد.

أنا لسان عبد الله

د. عروا يلسار *



الأطباء الحذائق التوصل إلى تشخيص بعض الأمراض عن طريق
لوني؛ فمن أشهر تلك الأعراض أن لوني يكون أبيض في الحُجَيَات،
وَبَسِيًّا غامقا في حُمَيَّ الثقبوتيد، وأسود في الفطريات، ويكون
سطحي أملس (عبر خش) عند نقص الحديد وفقر الدم وقص
الحامض اليكوتيبي الذي هو من فئة الفينيلينات "ب".

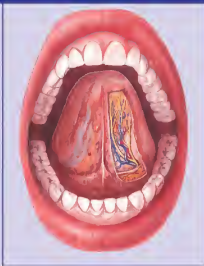
مهامي ووظائفي

وإن سألته عن وظيفتي الرئيسية التي تبادر إلى الأذهان فيمكن
الجواب بأن آلة النطق الذي هو الميزة التي تُمَيِّزُك وأبناء جسدك
من بين الإنسان عن سائر أصناف الحيوانات، عبر أن القدرة على
النطق ليس موهبة لي وحدي؛ فقل كل شيء، إن الملح الشحيم
في كل الجوارح ينظم كل حركاتي أثناء الكلام، لأنه هو النسق
لي ولكل الأعضاء، ويساعدني في تمكينك على الكلام أسانك
وشفتك وبالأخص الأوتار الصوتية التي في حنجرتك، ورثك
التي هي تنابة مضخة هواء. فقد لاحظت كيف أن أعضاء كثيرة
تعاون فيما بينها لتتمكن أنت من الكلام.

ولي مهمة ثانية وهي أن أقوم بدور البواب والمصرف

ع عزيزي عبد الله! لقد كنت دائما أتحدث باسمك،
وأقوم بإبلاغ الآخرين بمطالبك وأفراحك وأحزانك
واسشارك واستبائك، وأقوم بدور المترجم لما
يدور في حُذُك من الأحاسيس، وتَعَلُّقْ بذهلك من الأفكار.
واسمح لي أن أتحدث هذه المرة عن نفسي، وحنان أن ينادر إلى
ذهلك أي قد حسدت إحواي الآخرين من الأعضاء والجوارح،
بل على العكس؛ فحن لا نحاسد فيما بيننا، بل يقوم كل منا
بمساعدة الصغيف منا ويؤدي واجبه الذي أنامله الله به في تساند
وتعاون تامين، فليس لأحد منا فضل على الآخر. ونحن نقوم
بأداء واجباتنا ووظائفنا حسب ما أمرنا به ربنا.

فكل منا قد خلق على هيئة وذا خصوصيات ومزايا توافق
وظائفه، فمن غير المعقول الحديث عن فضل أحد منا على الآخر
أو انتقاصه؛ فلن ترى فيما أحدا خلق عبثا. غاية ما في الأمر أي
أردت أن أظهر لك أي لا أثلل من أهمية الجوارح الأخرى، بل
قصدي هو أن أبعثك على التفكير المشفوع بأحاسيس الشكر.
وقد يتصورني البعض وكأنني قطعة لحم غريبة لا أستقر في
مكاني، والحال لي لمست قطعة لحم عادي متنا، فقد يستطيع



فأي خطأ وإهمال يدر في قد يؤدي إلى أن تعَضِّي أسنانك وبالتالي سبب لك الألم.

تركيب العجبة

ولا بد لأدائي لهذا الكم من الواجبات والوظائف من بية تمتع بتركية دقيقة مؤلفة من أنسجة وحلايا فائقة الدقة. ولعلنا إن ربما الذي لا يخلق شيئاً عثاً جهاز لكل مهمة ما يناسبها من الأحجرة الحارقة من حيث جمال الصلعة ودقتها.

وهيكلي الأصلي يتألف من سبع عشرة عضلة متشعبة وممثلة إلى سبب الجهات، ولها عضلات منها مزدوجة يتحلقها نسيج دهني وكمية من العدد اللعابية.

وأستطيع تعبير حجمي وشكلي ووضعي أكثر بكثير من الأعضاء الأخرى؛ فانا أكثر الأعضاء اللوعدة فيك مروية وقابلة على الحركة وتعير الشكل. ولكي أستطيع التحرك بحرية تامة نحو كل الجهات عطي هذا الكم من العضلات بغشاء مخاطي. وتوجد على سطحي وجواني ثغرات تسمى "الحليمات". وهذه الحليمات لها أشكال متعددة، وتحتوي على براعم الفتوق

لأساعدك على تدفق لعلوم ما لا يحصى من أنواع الفواكه والأطعمة اللذيذة، ويفصل ذلك تكون على علم ودراية بكل ما تتناول من المأكولات البانينة أو الحيوانية. ولولايت كنت من جراء كثير من النباتات السامة التي تتناولها لإشباع عطشك وسد جوعتك، وإن مجرد ما ألامس كثيراً من المواد المرة الفكرية الطعم أعرف في الوقت نفسه أنها سامة ومضرة، وأنهك فوراً إلى أن تحبها، وبالمقابل إنك حينما تتناول الأطعمة الحلوة اللذيذة أكون وسيلة لتذكر ربك صاحب القدرة اللامهامة وتشكره على إتعامه عليك بمنح هذه النعم، ولكن لحي وشغلي هذه الدرجة بالطعم اللذيذ هو ابتلاء وامتحان لك. فعليك أن تكون حذراً وتصبغ نفسك، فالخالق حل وعلا ربط هذا الجانب من نفسك ليكون بمثابة سلم لك نحو المعالي، ولكن إذا وقعت في فح النفس وأساءت استخدام قابلية الفتوق وتلذذ طعم اللوعدة في كان تأكل وتشرب كثيراً إلى حد الإضرار بجسمك، فانت ستحتمل معة ذلك وتذرع منه. فإن عفتني الموطلة بي أتلقى كل شيء، وأما الانضباط واستعمال الإرادة وعدم الرصوخ لمطالب النفس فهو من مهامك أنت؛ فقد تأكل من الخلوى (التقلوة) شريعة واحدة أو عثر شرائع، وفي كل مرة فأنا لن أستطيع منعك من ذلك لأن عملي هو استنواق الطعوم ولا شيء غير ذلك، فإياك أن تلومني على ذلك.

ولي مهمة أخرى لا يعلمها كثير من الناس وهي أني بتحركي داخل الفم أعت على تولد ضغط سالب (-)، وقد تتصلب: "ماذا يحدي هذا الضغط السالب؟" إن هذا النوع من الضغط لا يد منه ليتمكن الأطفال الرضع من ارتضاع أثناء أمهاتهم، فانا بذلك أسهل عليهم عملية الرضاع.

وأبشاً لي دور مهم جداً في أداء عملية المضغ والبلع، - كما لا ينبغي على كثير من الناس -؛ فانا أقوم بقلب ما تتناول من الأطعمة والأغذية في فمك وأعطلها كما يخلط الخلط (الماكة) اللعابية، وأطللها واليتها بما تفرزه العدد اللعابية من الإفرازات وأعطلها مهابة للبلع، وأجبراً أدفع القسمة إلى اللعوم لتبلعها. وعلي أن أكون حذراً ومتيقظاً جداً أثناء قيامي بهذه الأعمال؛

عددها حوالي ١٣ حليلة بالخليمات الكأسية. وهذه أيضاً تسمى براعم التدفق.

وتوجد على كل واحد من براعم التدفق الموجودة في الخليمات الكمية حوالي ٥٠-٧٠ خلية مستقبلية للتدفق. وعمر هذه الخلايا يتراوح بين ٧-١٠ أيام. والخلايا التي تموت بسبب تناول الأطعمة الحارة أو الأسيد (الحامض) يحل محلها خلايا جديدة ترتبط برؤوس الأعصاب البوقية.

ولا بد لتغذية مستقبلات التدفق بسأده وظائفها أن تكون المسادة التي تتناولها مبللة وذاتية في الماء، ولذلك لا أستطيع أن أتذوق الأشياء الجافة فور تناولها، ولكن ما إن تبتل وتلوي هذه الأشياء إلى حد ما حتى تقوم خلايا التدفق التي يتم فيها التحليل في وقت قصير أدق مما يفعل أي عنصر كيميائي.. تقوم هذه الخلايا بتحويل هذا المحلول الكيميائي إلى تيار كهربائي وتوصله إلى دماغك، وهذه العملية تؤدي إلى إحساس الدماغ بالطعم.

أنواع الطعم

ومع أن أنواع الطعم كثيرة إلا أنها تنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية؛ فالخلايا التي تستقبل الطعم المحلو مختصة في الجزء الأمامي من الفم، والتي تستقبل الطعم المالح قد توزعت بشكل متوازن في السطح العلوي، والمستقبل للحر في القسم الخلفي، بينما المستقبل للحامض قد توزعت على جانبي. وأما القسم السفلي من فمنا - لدينا من القمة إلى أسفل الفم - طبقة مخاطية ملساء لا توجد فيها خليمات، وهذه المنطقة يبدو لوها بنفسجيا لأن معظم عروقي التي أتعدى ما يمر بها.

وهناك مثل يضرب للسان كتابة عس كثرة الكلام حيث يقال: "ليس للسان عظام"، ولكن هذا خطأ، فإننا أيضاً عظاماً ذا رأسين، والعظام والأسسمة الرابطة التي في جذري ترتبط بعظمي هذا ربطاً محكمًا، وهذا العظم مرتبط بفكك الأسفل. ولكن لأنه ليس في القسم الأمامي من فمنا يتشكل عائقاً آخر كئي، وبالتالي أطلق بكل ما يدور في قلبك وعقلك بسهولة ويسر.

أعراض وأمراض

وكما أن للأعضاء الأخرى أمراضاً تتعرض لها، فإن كذلك



التي يتحقق من خلالها عملية التدفق، وعلى الغدد النعابية التي تساعد على بقائي دائماً رطباً وندياً، ولا توجد هذه البراعم في الثلث الأمامي من جبهتي الخلفية (الجذر) التي صُوِّرت حدودها بأما على شكل "V"، وتوجد في هذا القسم كمية كبيرة من الغدد النعابية والأسسمة اللعابية التي تعرف بالآلزات اللسانية. وكثير من الميكروبات التي تدخل الفم تعلق هذه المنطقة ويحال دون إصهارها بالجسم.

وتسمى الخليمات التي تغطي سطح اللسان بأسماء مختلفة حسب أشكالها (الخطية - الكمية - الكأسية)، ولا توجد براعم التدفق في خليمات الخطية، فدورها المساعدة على تحريك الطعام وتقليبه أثناء المضغ والبلع بفضل سطحها الخشن واحتكاكها به. وهذه الخليمات تحول أجزاء الطعام التي قُصَّت بالأسنان وبُلت باللعاب إلى لقيمات يسهل بلعها.

والخليمات الكمية (التي تشبه الكأس: العطر) المنتزعة في نهاية الخليمات الخطية هي على شكل عقد، وتتواجد في المنطقة الوسطى من ظهر اللسان، وتحمل في طياتها براعم التدفق.

وأقل الخليمات عدداً لكن أكبرها حجماً هي التي نعدنا عليها أنما بأما توجد في الجزء الخلفي من قاعدة اللسان وتتوضع على شكل رقم سبعة (٧)، وتسمى هذه الخليمات الكبيرة التي يصل



مفتاح العالم

لولدك الشريف هلل الكون وابتهج،
وطربت الملائكة وزمت،
وتفتحت ورود الأرض والسماء،
وغرّدت الأطيّار، وأشدت البلابل،
وسقطت الطلائس،
وفُكّت الأغلال،
وأصبحت الكائنات كتاباً مفتوحاً،
يقروه الأميّ والفيلسوف...



أنتعرض للأمراض. والحقيقة أن معظم هذه الأمراض هي من حس ما نتعرض له الأعضاء الأخرى أو من مرض ناتج من خلل أيقيني عام، لكنها في الوقت نفسه تؤثر سلباً على مطهري الجارحي وتعر لونه. فعلى سبيل المثال، إن أكثر ما أنتعرض له من الأمراض هي القروح الألفية (القلاعية)، ففي حين أن منها ما يعرض نتيجة التوتر التسمي والأرق ونقص الفيتامينات، فهناك من القروح القلاعية ما يكون من أعراض مرض "عجت" والذي يتعرض له الإنسان نتيجة خلل في الامتصاص. وهذه القروح منها ما يدوم لمدة أسابيع ويؤلم كثيراً، ففي هذه الحالة قد تعاني يا عبد الله كثيراً من الأوجاع، خصوصاً أثناء الكلام أو تناول الطعام. ومرض الزهري (الفرنجي) والقوباء وأمثاله من الأمراض تظهر أعراضها على شكل قروح. وقد يؤدي التدخين وتناول الساحن من الطعام والشراب إلى إصابتي بالسرطان.

عزيزي عبد الله

إن أعضاءك التي لا تنطق عادة قد تحدثت عن نفسها بلسانها، وأما أنا فتكلم على الدوام، غير أنني كنت أقوم دوماً بدور المترجم عن أحاسيسك وأفكارك، وعلى كل حال فجميع ما أتقّم به من خير أو شر فواله عليك، لأنني في هذا الأمر مربوط بإرادتك، وأما اليوم فقد تكلمت بلسان وباسم خلقي.

ويوجد في ترانكم مثل والي يقول: "حافظ على يديك ولسانك وصلبك"، وكما يفهم من هذا المثل فإنه ليس بيدي الحفاظ على نفسي وليس لأحد غمرك أيضاً الحفاظ عليّ. وأعلم جيداً أن ليست عبارة عن مجموعة من الأعصاب والعضلات، وإياك أن تتسبى أن قد أكون آلة وواسطة لسموك إلى المعالي أو هبوطك إلى الخسيف.

ومن الآن فصاعداً إذا أكلت تفاحة مثلاً فلا تلمعها قبل أن تمضغها جيداً، بل امضغها على مهل وتربّت إلى أن ألتذوقها جيداً، وبذلك تجد القرصة لأداء الشكر على تلك النعمة، و تفتح لك الآفاق الواسعة نحو إدراك العبودية تجاه ربك الذي رزقك تلك النفاحة وأودعني في حبك لتتذوق منعها. ■

الجيل القرآني وبناءه العلمي

أ.د. دغلول النجار *

هذه الحياة ومن استقراته ليس الله في الكون، ومحاكاته كما أوجد الله تعالى فيه من خلق. ويشمل ذلك هداية الله سبحانه وتعالى التي أنزها على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكملها وأتمها في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. كما يشمل كل المعارف المكتسبة وميراث البشرية من هذه المصادر جميعها عبر التاريخ.

ولكن ساد بين الناس اليوم قصر نظرة "العلم" على العلوم الحديثة والتطبيقية القائمة على الملاحظة والاستنتاج، أو على التجربة والملاحظة والاستنتاج والملاحظة على الكون ومكوناته وظواهره المتعلقة بمختلف صور المادة والطاقة والجسيمات والأحياء فيه. و"العلم" بهذا التحديد بدأ مع الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده على هذه الأرض، ثم تزايد بالتدريج في عمليات من المد والجزر، ولكنه نما في الحضارة الإسلامية نموا متوازنا جمع بين وحى السماء والعلوم المكتسبة في تكامل وانسجام. ثم انتقل هذا العلم الإسلامي منهجه التحريسي إلى العرب عبر دولة الإسلام في الأندلس، وعبر الاحتكاك مع المسلمين في كل من صقلية

للإسبان في هذه الحياة رسالة ذات وجهين: أولهما عادة الله تعالى بما أمر، وثانيهما حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارها وإقامة عدل الله فيها.

وهذه الرسالة تشقيها لا يفهمها فهما كاملا إلا أبناء وبسات الجيل القرآني الذين تربوا على هذا الكتاب العزيز. ومن هنا كان الحرص على العودة بأجيال أمة الإسلام إلى هذا الجيل القرآني واستكمال بنائه العلمي والتربوي حتى يعود للأمة مجدها التقليد، ودورها في هداية البشرية الضالة الفاتية.

بعض التنازع العلمي في جيل القرآن

تعرف "العلوم" لغة بأنها مجموع ما علمه الإنسان من معارف وأخبار جمعت له عبر الزمن في مختلف الأماكن والعصور مرتبة حسب ما تتعلق به من أمور. ويشمل ذلك كلا من المعارف الموهوبة التي علمها الله تعالى لأبنائه آدم عليه السلام خلقه خلقه، وورثتها لبيه من بعده، وأنزها على عدد من أنبيائه ورسله كما يشمل المعارف المكتسبة والتي جمعها الإنسان عبر العصور من تجاربه في

ل

وجنوب إيطاليا وممال أفريقيا وبلاد الشام خاصة خلال الحروب الصليبية. ولكن للمهج العلمي الإسلامي عندما انتقل إلى الغرب كانت الكنيسة مهيمنة على الحياة فيه هيمنة كاملة، فرصت خلالها ستر التكرين على المعارف الإسلامية. وعندما اصطدمت نتائج المهج التحريبي مع تفسيرات الكنيسة بدأ الصراع بين العلماء والكنيسة وحُسم لصالح العلوم المكتسبة. فبدأت تلك العلوم من منطلقات مادية بحث منكرة كل ما هو غير مذك أو محسوس بما في ذلك الدين. فانطلقت كل المعارف المكتسبة في الغرب من منطلقات معادية للدين، منكرة للغيب، دائرة في حدود المادة وحدها متجاوزة لكل ما هو فوق ذلك.

من هنا أثر أهل القرآن الكريم وحفظته البعد عن هذه المعارف المعارضة للأصول الإسلامية الثانية. فرصنا إلى ما وصلنا إليه من تخلف علمي وتقني أقر شعوبنا وجعلنا في حاجة إلى عيرنا من الأمم. ولكن للمعطيات الكلية للعلوم المكتسبة في العقود المتأخرة من القرن العشرين -وعلى الرغم من أصحابها- بدأت في تأييد كل ما جاءت به الهداية الربانية التي تكاملت في بقعة انبي ورسول الخاتم ﷺ. ومن مقومات استكمال البناء العلمي لجيل القرآن الكريم الإلمام بهذه المعطيات الكلية للعلوم.

من المعطيات الكلية للعلوم

بلغت المعارف بالكون المادي في هذه الأيام مستوى لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد كل ما جاء به الدين من إيمان بالله الخالق البارئ المصور، وتزيره له سبحانه وتعالى عن الشريك والتسيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، كما تؤكد ضرورة الإيمان بالغيب وبالوحي وبالبعث والحساب. ويمكن إيجاز المعطيات الكلية للعلوم فيما يلي:

• إن هذا الكون الذي نعيش فيه كرون محدود، ولكنه كرون متناه في أعاده، مذل في دقة بناؤه وانتظام حركاته، وإحكام ترابطه، مما يشهد لخالفه بالألوهية والربوبية، وبطلاقة القدرة وبداعه الصنعة وإحكام الخلق.

• إن هذا الكون مبني على زوجية واضحة من اللبئات الأولية للمادة إلى الإنسان، ومبني في الوقت ذاته على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحانه مما يشهد لخالفه بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

• إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا تستطيع العلوم المكتسبة إدراكها، وإن أمكنها قياس معدلات هذا التوسع.

• لكون على قديمه مستحدث مخلوق، كانت له بداية في الماضي السحيق تقدر بخوالي أربعة عشر بليون سنة مضت. وكل مستحدثات عارض لابد وأن تكون له في يوم من الأيام نهاية تؤكد كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجز الإنسان عن تحديدها وقتها.

• إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته، كذلك لا يمكن أن يكون قد وجد محض الصدفة، لأن العشوائية أو الصدفة لا يمكن لها أن تنتج كوناً هذا الاتساع ودقة البناء والانتظام في الحركة.

• إن الخلية الحية التي لا يكاد قطرهما يزيد على ٠,٠٣ من المليمتر تبلغ من تعقيد البناء وكفاءة الأداء ما لم يبلغه أكثر المصانع التي أنشأها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من ذلك بعد. فقد أعطاها الله تعالى القدرة على إنتاج مئتي ألف نوع من البروتين تعجز أكثر المصانع التي أنشأها الإنسان عن إنتاجها، ومن ثم فلا يمكن لها أن تكون قد وجدت محض المصادفة.

• إن الشيفرة الوراثية التي تشغل حيزاً أقل من واحد من المليون من المليمتر المكعب في نواة الخلية الحية يصل طولها إذا فردت إلى قرابة المترين، وتحتوي على ١٨,٠٦ بليون جزيء كيميائي ترتب ترتيباً محكماً، لو احتل وضع ذرة واحدة منه إما أن يشوه هذا المخلوق أو لا يكون. وإذا عرفت أن جسد الفرد الواحد منها يتكون من تريليونات الخلايا وأن بنواة كل خلية مترين من حزيئات الشيفرة الوراثية، الضخ أن يمسد كل منا تريليونات الكيلومترات من هذه الحزيئات، وهو رقم يزيد في طوله عشرات المرات عن المسافة بين الأرض والشمس والمقدرة بخوالي ١٥٠ مليون كيلومتر، ولا يمكن لعائل أن يتحلى جمع هذه التريلونات من الحزيئات الكيميائية العائقة التعقيد والدقة وترتيبها هذا الترتيب للحكم محض الصدفة.

• إذا علمنا أن الخلية الحية هذا التعقيد في البناء، والكفاءة في الأداء، فإنه يستحيل تخيل إيجادها محض الصدفة، وبالتالي إيجاد قرابة الخمسة ملايين نوع من أنواع الحياة الموجودة والبائدة محض الصدفة، وأن يمثل كل نوع منها ببللين الأفراد محض الصدفة كذلك.

بتلك الوحدة المطلقة فوق جميع خلقه واستعلاؤه بمقام الألوهية الذي لا يشاركه فيه أحد ولا ينازعه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

• إن العلوم الكونية للمكتسبة - في تعاملها مع المثلث المحسوس - توصلت إلى حقيقة الغيب، وإلى أن في الكون غيوباً كثيرة لا يستطيع الإنسان الوصول إليها بجهده وحواسه وقدرات عقله. ولولا الخري وراء المجهول ما استمرت تلك العلوم في التطور والسما. ومن الغيوب ما هو مَرَحَلِي قد يصل الإنسان إليه، ومنها ما هو مطلق لا سبيل للإنسان إليه إلا عن طريق وحي السماء. ومن الغيوب المطلقة المحجوبة عنا حجاباً كاملاً: الذات الإلهية، الروح، اللامتناهية، حياة البرزخ، الآخرة، البعث، الحضرة، الميزان، الصراط، الخلق، النار، وغيرها كثير كثير.

• تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء أسراراً لا تعرف كلها، لأننا نعرف مكونات الخلية الحية كاملة، ومع ذلك لم يستطيع العلماء بناء خلية حية واحدة. وأقصى ما أتجته العلوم المكتسبة هو صناعة الموت (الجن)، وهو مركب كيميائي ميت لا ينشط إلا في داخل الخلية الحية مما يؤكد أن الحياة من الأسرار التي يعرف الإنسان طوعاً أم رهاً ولا يعرف كلها.

• إن إيمان النظر في الكون يؤكد حاجته بكل ما فيه ومن فيه إلى رعاية خالقه العظيم في كل خطوة من خطوات وجوده. ولولا هذه الرعاية الإلهية ما كان الكون ولا كان ما فيه ولا من فيه.

• إن العلوم المكتسبة إذ تقرر أن الكون والإنسان في شكلهما الحاليين ليسا أبديين فإنها - وعلى غير قصد منها - تؤكد حقيقة الآخرة، يسئل حتميتها، والموت يترادى في مختلف جنبات الكون حاصداً الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأحرام السماء على تباين هياكلها في كل وقت.

• إن الإشارة الكونية في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ لا يمكن فهمها فهماً في إسطار اللغة وحدها، بل لا بد من توطئة البعد العلمي لتحقيق ذلك.

• إن السبيل العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يمكن إثباته إلا بتطويف الحقائق العلمية في شرح دلالة الإشارات العلمية في هذين المصدرين من مصادر الإسلام. ■

أسناد علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالجلس الأعلى للعلوم الإسلامية / مصر.

• إن لبنات بناء أجساد الكائنات الحية وهي الجزيئات الفوتونية على قدر من الانظام في الترابط والأداء والتعقيد في البناء يلبان أي احتمال للعثورية أو الصدفة، وكذلك لبنات بناء الجزيئات الفوتونية وهي الأجزاء الأمينية التي لا يمكن لعقل أن يتخيل تكوينها أو ترابطها بروابط محددة تحمض الصدفة. هذه المعطيات هي قليل من كثير ولكنها تقضي على الحقائق المطلقة التالية.

العلوم تؤكد حمية القدرة الإلهية

• إذا كان الكون الحادث لا يمكن له أن يوجد نفسه بنفسه، أو أن يكون قد وجد بمحض الصدفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة ما يفوق جميع قدرات خلقه؛ ولا بد لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يفاير صفات المخلوقين جميعاً؛ فلا يحده أي من المكان أو الزمان، ولا تشكله قوالب المادة والطاقة؛ لأنه خالق ذلك وموجده، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً. ولذلك وصف ربنا تبارك وتعالى ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿لَا تَدْرِيهُ الْبَاطِنُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاطِنَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣). ويقول سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

• هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بكل ما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إعادته ثم إعادة خلقه وقما شاء وكيفما شاء، وفي ذلك يقول وقوله الحق: ﴿يَوْمَ نُطَوِّي السَّمَاءَ نَطْوِي السَّجْلَ لَنَكْتُبَ نَحْنًا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعُدُّهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤). ويقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

• إن بناء الكون في زوجية كاملة من اللبانات الأولية للمادة إلى الإنسان تنسب إلى وحدانية الخالق العظيم وإلى تفرده بهذه الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وتتضح وحدة البناء الكوني في بناء مكوناته من البرة إلى النخرة إلى بناء الكون كله، ومن الخلية الحية المفردة إلى الإنسان البالغ. كما تتضح في تأصيل العناصر وردّها كلها إلى أصل واحد هو "غاز الأثير وحين" أبسط العناصر بناء وأقلها مكونات، وحيث تتكون ذراته من بروتون واحد يحمل شحنة كهربائية موجبة يدور حوله إلكترون واحد يحمل شحنة كهربائية سالبة. وتتضح في تواصل كل من مختلف صور الطاقة وتواصل كل من المادة والطاقة والمكان والزمان - وهو تواصل في تراوح - وحدانية الخالق سبحانه وتعالى تفرّده

محمد إقبال وبديع الزمان النورسي

أ.د. حسن الأمري* ❖

ف

في الندوة التي احتضنتها جامعة وحدة في المغرب عن "حوار الشرق والغرب في رسائل النور"^(١) أشرت إلى العلاقة بين محمد إقبال وبديع الزمان سعيد النورسي. فالتقط الأستاذ إحسان قاسم هذه الإشارة العابرة بعصره الحبيبتين، ورغب إليّ إعداد بحث مفصل في الموضوع.

بداية الرحلة... بين الحب والإشفاق

وقد سعدت هذه الرغبة وأسفقت منها في الوقت ذاته، سعدت ها لأنها تمنحني فرصة أخرى لمصاحبة علمين شاعرين أحبيتهما منذ سنوات الطلب الأولى واعتبرت نفسي مديناهما في ميدان الفكر والأدب، وأسفقت منها لأن كل واحد من الرجلين بحر عميق يحتاج العروس إلى أغوارها لاقتطاع ما يكتسره من درر إلى سباح ماهر، وما أزعج نفسي ذلك، فكيف إذا تعلّق الأمر بتناول الرجلين معا في أدعما وفكرهما لاستخلاص ما يمكن أن يظهر عندهما من مظاهر الائتلاف والاختلاف؟ إنه لأمر حلل حقا.

ولكن الرغبة في مصاحبة الرجلين والاعتراف من بحرتهما غلبت الإشفاق، على قلة الراد وكثرة الأعباء، فاستعنت بالله تعالى وأقبلت على موضوعي طامعا في ملازمة بعض أطرافه، إذ الإحاطة به أمر قد تنقطع دونه الأحقاد، وتضعف المسم. وشجعتني على ذلك شغفي بالرجلين من قديم وحي لهما، فأما بديع الزمان فقد عرفته من خلال بعض الرسائل الصغيرة التي وقعت إليّ في ذلك الزمان المبكر، زمن الطلب الأول، مثل "رسالة الإخلاص" و"الخطبة الشامية"، وكلفت به، واعتبرته شيئا مرييا، قبل أن يقدّر الله تعالى لي أن أظفر بذلك الكنز العظيم للممثل في "كليات رسائل النور".

أما محمد إقبال فقد جمعي به أكثر من سبب، وقد عرفته شاعرا ومفكرا، ولو من خلال ما ترجم له من فكره وأدبه إلى العربية. ولقد عهدتني قبل أن أعرف محمد إقبال معنيا بأداب الهند وفكرها. ولكنني حين اكتشفت إقبالا، عرفت فيه الشاعر

المسلم العظيم المطلق من شبه القارة الهندية ليحلني في كل قطر من أقطار العالم، وضعت بنجر عظيم أن يكون من شعراء الإسلام شاعر يصح إقبال. ولعلّه وطد في نفسي الاعتراف بالانتماء إلى دوحه الأدب الإسلامي السامقة، فأضيف إلى الشعور بالإعجاب عاطفة الحب. فلقد أحبت هذا الشاعر المفكر الذي سحر ما منحه الله تعالى من مواهب للدفاع عن الإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية، وفي غيرها من أقطار الأرض، والدفاع عن الإنسانية كلها من خلال الإسلام. وقد أحسسته قريبا إلى نفسي واعتبرته صديقا ورفيقا، وإن كان على الحقيقة أستاذا ومرجعا.

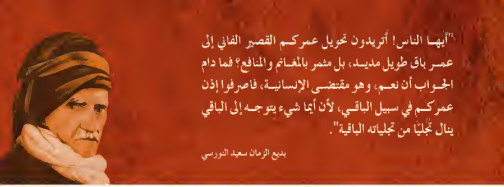
النورسي وإقبال... رجلا القرآن

وما أرى الحب الذي غلبني إلى بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال إلا لصفات مشتركة جمعت بين الرجلين، ولكن كان ذلك عندي شعورا غامضا أول الأمر أحسّه ولا أكاد أدرك أساه، فلقد تبين لي بالتأمل والتبصّر أن مظاهر الائتلاف بين الرجلين متعددة، وأن الاختلاف القائم بينهما -إد لا بد أن تظل لكل واحد منهما شخصيته للتمييز- إنما هو اختلاف تواذ لا اختلاف تضاد.

ولعل أكثر مظاهر الائتلاف بين الرجلين أنها لا تعلمون الحق قيد أثمة إن نحن أطلقنا على كل واحد منهما "الرجل القرآني". فعلى الرغم من سعة علم الرجلين وتبحرهما في علوم الشرق والغرب، إلا أن مدار الأمر كله عندهما هو القرآن الكريم أولا وآخر، وما سوى ذلك إنما كان تقريرا يدور حول القرآن الكريم.

محمد إقبال... الشاعر المفكر

أما أجلى مظاهر الاختلاف بين الرجلين فمرهه إلى ترتيب أولوية الموهبة عند كل واحد منهما. فمحمد إقبال شاعر أولا، فالتعبر هو الغالب عليه، ولكنه رجل مفكر في شعره، فليس شعره بذلك الشعر الذي يعنى براعة التصوير ودقة التعبير، بمعزل عما يحمل ذلك الشعر من فكر صحيح وعقل راجح وقلب متيقظ، ولعل هذا



"أيها الناس! أتريدون تحويل عمركم القصير الفاني إلى
عمر باق طويل مديد، بل ثمر بالنعام والمنافع؟ فما دام
الجواب أن نعم، وهو مقتضى الإنسانية، فاصرفوا إذن
عمركم في سبيل الباقي، لأن أيما شيء يتوجه إلى الباقي
ينال تجلياً من تجلياته الباقية".

بدیع الزمان سعید النورسي

"الشعري العربي النوري" مثلاً ناطقاً على هذا. فإقبال إذن شاعر
مفكر، وبدیع الزمان مفكر شاعر، لم تسأل بعد ذلك مظاهر
الاختلاف بين الرجلين تترى.

رجل القدر في حياة أمة

عاش كل من محمد إقبال والنورسي في فترة عصيبة من حياة الأمة
الإسلامية، هي فترة العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر
والعقد الأول من القرن العشرين. فقد ولد الرجلان في فترة
واحدة تقريباً، ولد محمد إقبال عام ١٨٧٧م، وولد بدیع الزمان
النورسي عام ١٨٧٦. وشهد الرجلان وهما في فترات التكوين
الأولى ما تعرض له أمتهما من هوان على يد الاستعمار الغربي من
جهة، وبعض الحكام الفاسدين من جهة أخرى. فكان الاستعمار
العربي يأتيها يقصها من أطرافها، ويسعى إلى الإحهاز عليها
حصارياً، وكانت الخلافة العثمانية على ضعفها تمثل رمزا تتوحد
تحت ظلاله أمة الإسلام، فتحد لها الدول الغربية هيبة لذلك. فلم
يبق إلا أن تتأمر من أجل الإحهاز على هذا الكيان الذي بقي يمثل
الخيوط الرابط بين أحواء هذه الأمة للترامية الأطراف.

وكانت تركيا، أقرب الأجزاء إلى الغرب وأكثرها تعرضاً
للاحتكاك به كل حين، فلا غرو أن تكون أكثر الأقطار الإسلامية
ملاها. وكانت الهند -على الشقيص من ذلك- أبعد تلك الأطراف،
إلى لم تكن أبعداً على الإطلاق، ولكنها كانت في الوقت ذاته
حاضرة التاج البريطاني. ولم يكن من المستبعد أن التفريط فيها،
لأن في ذلك انقراضاً لعقد الإمبراطورية التي كانت لا تعيب عنها
الشمس. وعندما دخلت بريطانيا الهند كان للمسلمين فيها شأن
عظيم، وكانت الإمارات الشمالية خاصة تحت إمرة المسلمين.
ولكن الضعف الناتج عن الانصراف إلى ملذات الحياة الدنياء كان
قد أخذ من ذلك الكيان مأخذاً.

سر انتشار شعر إقبال عالياً، فالتعجب حين يترجم بفقد عادة كثيراً
من خصائصه. وقد أشار شيخ تقادير القدامى "الجاحظ" إلى أن
الشعر لا يترجم، لأنه إذا ترجم فقد ذلك للمعجز الذي هو الوزن.
ولكن شعر محمد إقبال لا يكسب جماله من كونه كلاماً موزوناً
مقفياً فحسب، بل هو يكسبه من ذلك القبس الرباني الذي
يسري فيه، والعمق الإيماني الذي يتلبسه، والفكر المستنير الذي
يسوقه، وقد ألبسه ثوباً قشياً من الخيال الملمح. فلذلك كله نقرأ
شعر إقبال وقد ترجم من لغة الفارسية أو الأوردية إلى العربية
مثلاً، فيهزنا من الأعماق ونستحيب له كما لا نستحيب لكثير
من الشعر العربي السيار في مسابرة الثقافة اليوم، ونحن نقرؤه في
لغة، لأنه كلام بارد غث فقد حرارة الإيمان وتوهج العاطفة.
لقد حُفّ إقبال في مجال الشعر والدراسة عدداً من المحاضرات
والدروس، من أشهرها محاضراته التي جمعت في كتاب عنوانه
"تجديد الفكر الديني في الإسلام"، ولكن فكر إقبال الأصل
المفرد إنما يتجلى في شعره أولاً. ولعل بعض المتأخرين أحدثت
عليه كثيراً إنما كانت في تلك الدراسات الشعرية، لا في شعره.
فأنت لا تجد في شعره إلا ذلك الشدق الإيماني للبشر بالإسلام
والداعي في عمق إلى بقية المسلمين.

بدیع الزمان.. المفكر الشاعر

وإذا كان محمد إقبال شاعراً أولاً، كما قررنا آنفاً، فإن بدیع
الزمان النورسي مفكر أولاً، ولئن كان يقرر في أكثر من موضع
من الرسائل أنه حُرّم بعمه التعلّم، إلا أنه رزق روحاً شعرية
وأسلوباً شعرياً بدعياً يجعل كلامه من حافى الشعر. وذلك
الأسلوب الشعري بما اشتمل عليه من لداوة وطلاوة، وما تضمنته
من تخيل وتمثيل وعرب للأمثال صار ميسماً لرسائل الثور، وهو
مسا بينها المفرد في التعبير مثلما وهبت المفرد في التفكير. ويقوم



"كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته، وجمال الدين الرومي في حكمته، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه، وكن مع من شئت في العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بظائل حتى تكون لك آفة في السحر".

محمد إقبال



حياة النورسي... ملحمة إنسانية

في هذا الطرف بالمدات كان كل من بدیع الزمان النورسي ومحمد إقبال رجل القدر في حياة أمة. لقد كانت حياة الأستاذ بدیع الزمان حافلة بالأحداث الجسام، وهي تمثل ملحمة إنسانية حقاً. ولا يملك قارئ سيرته الخاصة إلا أن يسلم أن الأستاذ كان فعلاً رجل القدر في حياة أمة. وقد جعل هذه الأول إنقاذ الإيمان، ولم يكس ذلك أمراً حثياً فإيمان مناط الأمر كله، ولذلك كان مترقياً ألا يكون طريق الأستاذ لاحقاً لبنا، ولا أن يكون جهاده هيباً. كما كان مترقياً أن يجد مقاومة عنيفة وشرسة من حوصم الأمة ومس أبعادها الداخليين والخارجيين، بالرغم من أن منهج الأستاذ كان يقوم على اللين والدعوة إلى مسيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وما للحاكمات المتوالية التي تعرض لها الأستاذ والسجون التي ذاق نكاتها، غير دليل ملمح على ذلك الجهاد الكبر الذي قام به. والرفق الذي اتبعه الأستاذ بدیع الزمان في جهاده ثم يكن يقوم على السلبية تحت شعار "اللاعنف" كما فعل غاندي في الهند مثلاً، بل كان يقوم على الجهاد، وللجهاد صور شتى، ولم يكن الجهاد العسكري نفسه خارج دائرهما، وقد حمل الأستاذ السلاح وقاتل بنفسه أعداء الأمة، ولكن مرحلة صورهما من صور الجهاد. فخلال الحرب العالمية الأولى، والجيوش الروسية تحاول الانتفاع نحو الأناضول كان سعيد النورسي يقاتل هو وطلابه الجيش الروسي بكل ما أوتوا من جهد. وفي هذه المعارك وفي خنادق القتال ألف تفسيره القيم "إشارات الإعجاز في مظان المجاز" باللغة العربية. وهكذا كان النورسي هارس السيف والقلم.

محمد إقبال.. المؤرق هموم الأمة

وحسباً أيضاً يشقى العلامة محمد إقبال مع الأستاذ بدیع الزمان

النورسي، فقد كان إقبال مناهضاً للاستعمار الغربي بجميع مظاهره وأشكاله، وكان في الوقت نفسه شديداً على أمراء الولايات الإسلامية الذين ألهمهم الحياة الدنيا عن الجهاد والدفاع عن المستضعفين. وبخاصة مستقبل المسلمين في الهند قال: "أشرت على بعض أمراء المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بشعر الإسلام في عمر المسلمين، ونشر الثقافة والأدب الإسلامية في المسلمين، وإحياء اللغة العربية وأدبها في هذه البلاد، والانتعاش بثروهم بتأسيس بنك عالمي، وإنشاء صحيفة إنجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين، حتى يحسب لهم حساب وبرهب جانبهم، وتكون لهم مكانة عالمية تحسنى وترحى، وإن في ذلك حيالة لدولتهم وضماناً لكيانهم. ولكن الأمراء المسلمين لم يعرفوا أهمية هذه المسألة، ودقة مرفقهم والخطأ الذي تحدث بهم". وكان يشكو قصر بقرهم، وضعف تفكيرهم، واشتغالهم بنفسهم.

النورسي في علوم الشرق والغرب

يرى قارئ سيرة محمد إقبال وبدیع الزمان النورسي مشابه واضحة بين الرحلين. فقد غل كل منهما من الثقافتين الشرقية والغربية وتضلع فيها تضلعاً جعله مهوياً للرسالة الشائعة التي أبطت به. فلقد درس إقبال في مدرسة إنجليزية في بلده، ثم التحق بالكلية في ذلك البلد، وهناك درس العربية والفارسية. وحين انضم إلى كلية الحكومة في لاهور، عاصمة السحاب، حضر شهادة في الفلسفة، وبرز في العربية والإنجليزية، ونال وسامين، وأخذ شهادة B.A. بامتياز، ثم نال شهادة M.A. في الفلسفة أيضاً. ومنذ عام ١٩٠٥م بدأت رحلة إقبال في عالم الغرب للنهل من ثقافته. وقد بدأ هذه الرحلة بالالتحاق بجامعة "كامبرج" في لندن حيث بقي هناك ثلاث سنوات، قبل أن يلتحق بجامعة ميونيخ بألمانيا لينال من هناك الدكتوراه في الفلسفة، ويعود إلى لندن مرة أخرى، ليرجع

الإنسان، وتعلمها الإنسان معه في كل مكان، وهي مدرسة القلب والوجدان، وهي مدرسة تشرف عليها للمدرسة الإلهية وتمجدها القوة الروحية. أما العوامل الخمسة التي تبعت من هذه المدرسة المتقدمة وكونت شخصية إقبال فهي:

١- الإيمان، ٢- القرآن الكريم، ٣- معرفة النفس، ٤- الاتصال بالله تعالى، ومناجاة ربه ساعة السحر حيث يقول في قصيدته: "الهم لوزق الشياب أنني في السحر"، ٥- المثقوي الفارسي الذي نظمته جلال الدين الرومي في ثوره وجدانية ونفسية جديدة ضد الموحه الإغريقية العصرية التي احتاحت العالم الإسلامي في عصره.

ولما تدرت هذه العوامل جميعاً، وعرضتها على مسيرة بدیع الزمان النورسي وجدتها تستجيب لها أيما استجابة، ووجدت سبباً آخر من أسباب التلاف الرحلين، حتى لكأن أما الحسن الشاذلي كان يتحدث عن النورسي لا عن إقبال.

وأما الإيمان فيكفي أن الأستاذ بدیع الزمان وقف رسالته على شيء واحد هو إيقاظ الإيمان، وقد ضحى في سبيل ذلك بكل غال ونفيس. أليس هو القائل في هذا الصدد: "نعم، إن أجل مسألة في هذا الكون وأعظم سر خلق العالم هو سر الإيمان. فليس في الوجود مسألة أعظم منه كي يسخر في سبيلها ويستخدم لأجلها؟".

وأما معرفة النفس، فقد جعلها النورسي طريقاً لا بد منه لسلك الطريق القويم. وأما القرآن الكريم فيكفي أن أعظم ما كان يجب النورسي أن يوصف به هو أنه خادم القرآن الكريم، وهو القائل: "لأفرهن للعالم بأن القرآن خمس معبوة لا يخبر سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

وأما جلال الدين الرومي وديواته "الشذوي" فحسبنا أن نعلم أن إعجاب النورسي به بلغ حد وضع كتاب على منواله هو "الشذوي العربي النوري". وهذا أمر يدعو إلى الدهشة، إذ كيف حدث أن يكون جلال الدين الرومي وكتابه الشذوي أقرب الكتب إلى روح الرحلين على كثرة العلماء والأدباء والعارفين الذين تم الاستشهاد بهم؟! ■

^{١٠} رئيس غرر علة للشكافة / للرب.

^{١١} عقدت الندوة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة وجد بلغرب في شهر أبريل سنة ٢٠٠٠.

إلى الحد وقد نال من علوم الغرب، في دياره، ما مكّنه من معرفة أسرار الحضارة الغربية، حتى إذا قام لاتخاذها قام بذلك على بصيرة. وقد قام أثناء إقامته في بريطانيا بتلخيص الآداب باللغة العربية في جامعة لندن، مدة غياب أستاذه توماس أرنولد.

أما بدیع الزمان النورسي فقد تتبحر هو كذلك في الثقافة الغربية، فاطلع على فلسفتها ومذاهبها (الفكرية، وبرزت مواهبه في تفهيد المذاهب الفكرية والفلسفية المنحرفة. وبما يذكر هنا أن كلا الرحلين أدرك تلك المكانة الرفيعة في وقت مبكر من السن، وقد آس بدیع الزمان ذلك من نفسه، إذ لما رحل إلى إسطنبول عام ١٨٩٦م، وهو دون العشرين من العمر، علق لوحة على يابه كتب فيها: "هنا قبل كل معصلة ونجاب عن كل سؤال من دون توجيه سؤال لأحد".

الشع يحب العربية

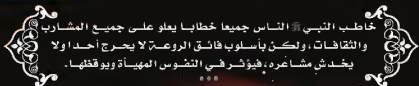
كان كل من بدیع الزمان النورسي ومحمد إقبال رجلاً أعجبيا غير عربي، ولكن لما كان كل واحد منهما يجعل القرآن الكريم زاده، ومبتداه ومنتهاه، لا يصدر إلا عنه، ولا يستظل إلا بظله، تشرباً حب العربية ودافعاً عنها ورأياًها من تمام الدين.

فأما بدیع الزمان فكان إقانه للعربية عظيماً، وحبها لكثيراً، وقد بدأ التأليف ما قبل أن يؤلف بالتركية، إذ كان أول ما نشر له بالعربية كتابه القيم: "إشارات الإعجاز"، ثم في سنة ١٩٢١ "قسرل إيجاز في الشطن". وفي أقرة ألفت "ذيل الذيل" و"الحجاب" وأجزاء أخرى من "الشذوي العربي النوري".

أما محمد إقبال فقد كتب دواوينه الأولى بالأكوردية أولاً، ثم كتب بعد ذلك سائر دواوينه بالعربية، لأنها في رأيه أكثر انتشاراً. أما العربية فلم يؤثر عنه أنه كتب بها، إلا أنه كان لها محباً، وفي علومها متبحراً، وإلى تعليمها وتلقينها كافة المسلمين داعياً، إذ لا سبيل إلى الشهوض الحضاري إلا بالقرآن الكريم وتدرسه، ولن يكون ذلك أبداً إلا عن طريق العربية.

مدرسة القلب والوجدان

وقد تتبع أبو الحسن الشاذلي رحمه الله العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال، فذكر أنه تخرج من مدرستين: المدرسة الأولى هي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية، وهي مدرسة -على أهميتها- أمرها هين. وأما المدرسة الثانية التي كان لها أعظم الأثر في شخصيته فهي مدرسة متميزة، لأنها مدرسة داخلية تولد مع



جمالية التعريف القرآني بالله

أ.د. فريد الأصاصري *

أسماء - وهي أسماء صفات - تكونها "حسين". إنها أنوار متدفقة من مشكاة الله ذات البهاء الدرّي، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠). وقال سبحانه: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الأنعام: ١٨٠). ومن هنا كانت البداية في قصة التسمية.

التسمية الأولى... الخلق

الله... هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. سبحانه وتعالى علوا كبيرا. إنما عرفه الإنسان أول ما عرفه "ربا"، فلما عرف منه تعالى ما عرف، أُلِّهَ عليه فعبده. إن أول نعمة إلهية ظاهرة فاضت أنوارها على الإنسان من مشكاة أسماء الله الحسنى "الخالق" و"البارئ" و"المصور"، وما إليها من الأسماء والصفات كانت

الله رؤسا هو بيده تدفق الجمال على عبقدة الإسلام، إذ إن جمال الرب عز وجل يفيض من بهاء ذاته تعالى وصفاته. وإنما صفاته تعالى هي صفات الجمال والجلال، إنه النور الخارق الذي لا يطاق. عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فيها رسول الله ﷺ لخمسة كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخلق من يقظ، ويحكمه، يُرَفِّعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حَتَّىٰ تَلْقَىٰ النَّورَ، لَوْ كُشِفَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ مِّثْرَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ مَعْرِفُهُ مِنْ عِلْمِهِ." (رواه ابن ماجة، والشمسيات جمع مُسْتَنَتَة: وهي ما يفيض عن الذات الخبيطة من ألوان النور، ونواضع الحسنى، وأضواء الجمال. ومن هنا وصف سبحانه

أهمية ثمرة المعرفة

من هنا إذاً كانت معرفة الربوبية موروثة لمحبة الله، أي لعبادته. ولذلك فقد وودت اثترجيئات التروبية النبوية للأمة العابدة لمحبة لربها أن تذكره تعبدًا بجلال ربوبيته سبحانه. قال ﷺ: "من قال رضيبت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا وحيث له الجنة" (رواه أبو داود). وذكر النبي ﷺ في هذا السياق قصة طريفة معادها أن عبدًا من عباد الله قال: "يا رب، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك" فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكساها. (...) فقال الله عز وجل: اكساها كما قال عدي حتى يلقيها فأجره بها" (رواه الإمام أحمد).

إن الإعضال الذي حصل للملائكة الكثرة، إنما هو بسبب أن هذا العبد قد حمد الله حمداً موصوفاً بصفة الله للطفقة "كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك"، وهو ما لا يمكن أن يسيط به عبد من عباد الله علماً، لأنه متعلق بما هو عليه الله "رباً" في ذاته تعالى وصفاته، من جمال وجلال، وبما يفيض عن سلطانه العظيم من تقدير وتديبر على الإطلاق. وعلم ذلك هو عين المستحيل، فكان أن فرغ للملائكة إلى الله من هذا التعبير الذي أريكنهما إرباكاً، إنها عظمة الربوبية التي توجب الخضوع لله الواحد القهار.

إن هيئة الجمال والجلال في ذات الشرب العظيم، تودث العبودية في القلب المؤمن بالله. ومن هنا كان ثالث المعضل الكبير الذي يشر به النبي ﷺ من أحصى أسماء الله الحسنى أو حفظها لما لهذه الأسماء من أنوار لا تقا تقصص عن ذات الرب سبحانه وتعالى بمعاني الكمال والجلال. قال المصطفى ﷺ: "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة". (مسند أحمد). والحفظ المذكور في الحديث لا يدل على المعنى الشكلي للفعل، من عدّ أو استنظر فحسب، وإنما يدل على الحفظ بمعنى الاستيعاب القلبي والاستحضار الشعوري كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ الْغُلَامُ عَلَى غَرَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ﴾ (يوسف: ٢٥)، مشيراً بالحفظ إلى الأمانة وهي معنى قلبي محض.

إن تمثّل مقتضيات أسماء الله الحسنى تمثل المحب المتعلق بابه الكريم برحو وصاله واليهل من أنواره، هو الذي يفتح الطريق للعبد السائر إلى الله للحصول على الإذن الملكي العالي إكراماً لمحبهه والتعلق بأسمائه.

هي خلق آدم عليه السلام. ثم توالى عليه بعد ذلك النعم تترى لما لا يحصى ثناء وشكراً، رزقا ورعاية وهداية... إلخ. ولذلك وجب أن يكون أول ما يخطر به الإنسان - أي إنسان - في حق ربه سبحانه وتعالى هو الحمد والشكر أولاً وقبل أي شيء. ومن عجيب أمر الله الكوني سبحانه، أن أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام بعد ما أبعث فيه الروح هي ﴿أَشْكُرُكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٧٥)؛ وهو في حاد ونداء. ولذلك فإن القرآن الكريم - وهو كتاب الله - افتتح بالحمد لرب العالمين، ومجدد أسمائه الحسنى، ثم بعد ذلك ثلن بالعبادة التي هي نتيجة للربوبية. فكانت سورة الفاتحة وهي فاتحة القرآن.

الربوبية والعبودية

إن توحيد الربوبية هو اعتراف بسيادة الله على الكون والخلق أجمعين، اعترافاً يتضمن الرضى به وبما وسيداً، والإيمان بما له تعالى من صفات الجمال والجلال. قروبتيه سبحانه إنما تعرف من خلال صفاته تعالى؛ ولذلك فقد سمى عز وجل نفسه بأسمائه الحسنى، وطلب منا إحصاءها والدعاء ههنا أي أن يوحده في إلهيته تعالى هاء، وذلك باب العبادة. ومن هنا كان توحيد الإلهية موصولاً بتوحيد الربوبية، وهو منطوق القرآن ومفهومه. قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْحَمْدِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (زمر: ٢٠). فأثبت الربوبية أولاً من خلال اسمه الرحمن، ثم ثلن بكلمة الإخلاص باب التبعد. والجميل حقاً أن ربوبيته تعالى تتجلى في أسمائه الحسنى، ومن هنا كان البدء بها في القرآن، وفي كل أمر ذي بال. إن جمال الربوبية للشجلى في جمال الصنعة، وكمال الخلق، وتلغف الإعجاب، والفيض على العالمين بالخبايا... إلخ. هو الذي هو القلوب المحبة للجمال، فعضعت له عابدة منتبلة في محارب الإيمان، مفرمة أنه "لا إله إلا الله". إن المحب الذي في في المحبوب إنما حصل له ما حصل لما رآه في محبوبه من جمال الجمال والجلال.

"الله" .. هذا الاسم العظيم، الدال على الذات الإلهية، يثقل وقعه في القلب العارف به تعالى حتى التصدع، قال ﷺ: "ولا تنقل مع اسم الله تعالى شيء" (رواه الإمام أحمد). إنه ثقل الربوبية الذي ينسرب بجلاله وجماله الذي لا يطاق على الصخر فيجعله دكاً، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ﴿لَوْ أَنَّنَا كُنَّا كَمَا تَقُولُوا عَلَى جِبَلٍ لَآتَيْنَهُ خَائِشًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحجر: ٢١).

جمال وجلال.. بجانب الطور الأمين

ومن أطرف الموقف الإلهية، وأكثرها حملا وجلالا، خطابه تعالى لنبيه موسى (عليه السلام) بجانب الطور الأمين.. إنه حدث وحدث عظيم يهر القلب هزا.. موسى تائه في غسق الليل بين الجبال، يسير بأهله، يبحث عن داف، حتى إذا تفرد بين الصعاب باحثا مع الله يتكلم.. أتدرون ما تفرؤون؟ إنه سمع الله يتكلم... وتلك حقيقة كوية رهيبة لا نسمعها العُقول تصورا، ولا القلوب استيعارا. ولكن الأهل في الموقف أنه يتكلم معه "هو" بالذات... الله الملك العظيم رب الأرضين والسموات، رب الفضاءات واللدارات... يتكلم هذا العبد الضئيل بل هذه الذلّة الدقيقة لتأنيده في الفلوات... هل تستطيع أن تصور نفسك هناك؟ إذن أنصت لكلام الله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٢١:٢٠).

موسى التائه الباحث يسمع متكلمًا، فيحده أنه مخاطبه ويعرفه بنفسه، فكانت هذه الكلمات الجليلة العظيمة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا...﴾ عبارات شاحرة لمعنى الإسلام وعقيدة الإسلام، عقيدة المحبة العليا.. فقد سمى الله نفسه سبحانه باسمه العظم معرّفًا ببلاده "الله". وهو الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى. ثم قرأ ما يتبعني أن يعرفه العبد عن ربه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، فلا ينبغي أن يسكن قلبك يا موسى حبٌ سواي، ولا أن تجرد وجدالك لغيري، فمقام الإلهية يقتضي من الخلق الانسجام في سلك الخدمة والطاعة لسيد الكون، الربّ الأعلى. وذلك تفرغ القلب من كل المقاصد سوى قصد الله، وتجريده عن غصنا فقيرا بين يديه تعالى، إلا من أثناء الشوق وحضرة الرضى، تساب مستطية لأسماء لمحبة الإلهية أُنِي عَشَّ، آسَيَا لا يجد معه العبد كلفة ولا شقًا، بل هو انسباب الواحد راحته ولذته في عبوديته لرب العالمين، وأهب الأنطاف الحقة، والأسرار البهية، لتلك الخليم ذي الجمال والجلال.

الله.. الاسم الجامع لكل الأسماء

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ...﴾ هذا الاسم العظيم الجامع لكل معاني الربوبية والإلهية، يقتضي قتله على مستوى القلب شعورا بالرغبة والرهبة، وهما صفتان تقيضان عن القلب الذي وجد لسة الحب، وهو مخ العبودية. وإلما العباد سالكون بين صفتي الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، فاتم به من جمال في السور، وأكثر به من هاء في

الشري. ولذلك قال له بعد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: لأن الممثل لحقيقة "الله"، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ربوبية وألوهية، لا يملك إلا أن يتضع لله عاكرا وعابدا، فليكن إذن خضوعا لا يشرّك معه فيه أحدا. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾.. تقرير اعتقاد، نعم، لكنه من العبد شعور.. يحتاج إلى مصداق من الأعمال والفعّال. وهل يملك من يجد في قلبه شيئا أن يكتمه؟ خاصة إذا كان هذا الذوق الموجود من الجمال والجلال ما لا يستطيع قلب بشري أن يتحمّله سرًا إلى الأبد. فلا بد إذن من التعبير، وذلك هو أركان الإسلام الخمسة: الطلّ بالشهدتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. أعمال وأفعّال كلها تسلك بالبعد مسلك الخدمة والطاعة لله رب العالمين، وتضعر صاحبها بمقدار ما يجده في قلبه من الحب، وما يحترف به من إقرار على نفسه، إذ شهد أنه "لا إله إلا الله". فإلى أي حد هو صادق فيما عر به عن نفسه؟ إنها شهادة على القلب. أقره كان صادقًا كل الصدق أم بعضه؟ ولذلك قال عز وجل لموسى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. العبادة إذن هي "التعبد". التعبد تعبير لظاهر عما وجدته للمسلم في الباطن، إذ شهد أنه لا إله إلا الله، إنها تعبير المحب عما وجد من حب، وأني محب يستطيع الكتمان؟

الصلاة.. أم العبادات

وبقيت الصلاة في الإسلام كما كانت في الأديان السابقة أم العبادات. ولذلك حصّاه الله بالذكر هنا ومزا لكل عضوع واحتشع ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.. وما كل أركان الإسلام في الخهر -مهما تعددت أشكلها- وهبها إلا "صلاة" ولذلك قال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة" (رواه أحمد). فكانه عليه الصلاة والسلام يقول الإسلام هو الصلاة، لما في معنى الصلاة من جمع لكل مواجيد التعبد والخضوع لله رب العالمين، وذلك هو المقننى العملي لكلمة الإخلاص "لا إله إلا الله". والترجمة الفعلية للأمر للملكي: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾، الذي جاء تفسيره وبيانه بعد مباشرة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. هيا لجمال "الذكر" في سياق الصلاة! ذلك التعبير المليء بالإيمانيات الوجدانية، التي تحلو الأحية بالتراتبيل للمثبته شوقا لذكار المحبوب.

وذكر الله هو مقام الأدب مع الله.. فالعبد الحقيقي هو الذي لا يفتأ يذكر سيده فلا ينساه.. وهل ينساه حقًا؟ إذن ليس بعيد، وإلما العبد من كان دائم الخضور بباب الخدمة، لا يفتأ وإلما بأدب

قبل أن تكون تعبيدا لأفعالهم. وهو الأمر الذي لم يقلوه، إذ كان "الشرك" قد ران على قلوبهم فلم يستطيعوا منه فككا. وما حقيقة "الشرك" إلا أهواء ومواجيد، سكنت قلوبهم فلم تصف بثلث لربها للثلاث الأعلى. إن التشرك هذا الإدراك معني قلبي كاتنوحيد ثامنا، أعني من حيث إيماء معا شعور يتحدث في القلب، وإن كانا متناقضين، كتناقض الحب والبغض، أو السخط والرضى.

فلم يكن من منطق الأشياء أن تدور معركة، بل معارك مريرة، بين الرسول ﷺ وبين العرب من أجل أحجار هي الأصنام، التي كانت تعد من دون الله. بل إن حقيقة المعركة كانت حول ما ترمز إليه تلك الأحجار، من أهواء سكاكة في قلوب العباد. فما كان صمود العرب في وجه الدعوة الإسلامية كل تلك المدة، حتى عمام الفتح، حيا في الأوثان ثلثاتها، وإثما حيا فما كانت ترمز إليه، وما كان يقع باسماها في قلوبهم من حب لمجموعة من الأهواء، هي الألفة الحقيقية التي كانت تعبد من دون الله، من حب للمجاهد، وحب للسيدة، وحب للمال، وحب للتسلط على الفقراء والعبيد باسم الألفة، أو قل باسم الصخور الجامدة. تلك كانت الأحجار إلا بتسميها لها في عالم المادة، ورمزا لما في عالم الإحساس، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الحاقة: ٢٣).

ومن هنا حرص النبي ﷺ على الإطاحة بأوثان الشعور، قبل الإطاحة بأوثان الصخور! وقد ظل شككة يعبد الله قبل الحجره ويطوف بالبيت العتيق وقد أحاطته الأصنام من كل الجهات، لأن عمله حينئذ كان هو إزالة أصولها القلبية، وجذورها النفسية؛ حتى إذا أتم مهمته تلك، كانت إزالة الفروع نتيجة تلقائية، لما سلف من إزالة للجذور ليس إلّا. ولذلك قلنا: إن الشرك معني قلبي وجداني، قبل أن يكون تصورا عقليا نظريا.

إن "لا إله إلا الله" -وقد سُميت كلمة الإحلاص- ليست إلا تحريدا قلبيا للهوى حتى يكون حاصله الله وحده. وكل حب تفرقت به الأهواء لم يكن إلا كلبا. والشهادة في الإسلام إقرار من صاحبها على نفسه، وما يجد في قلبه بالتصديق. فانظر أي قرار يتخلله الإنسان، حينما "يسلم" لله رب العالمين، ويشهد "أن لا إله إلا الله" ■

العبودية إلى جانب الاعتاب العليا... فأين ينسوي مولاه؟ أن تصلي يعني أن تكون دائم الذكر لله.. ولذلك كانت الصلاة أرقى تعبير عن حضور القلب مع الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. تلك معان كلها تفيض عن شهادة أن "لا إله إلا الله". كلمة الإحلاص وعنوان الإسلام لله رب العالمين. وهي الكلمة التي يفرغ إليها المؤمن من الغم والكرب، ثامنا كما يفرغ الصبي إلى أمه عندما يلزم به مكروه. أتدرون لماذا؟ لأنها ببساطة أقرب الناس إلى وحدانه، ولو لم تكن كذلك لما نادى صبي في الدنيا إذا استغاث "أماد"، إلا أن العبد الذي سكن قصد الرب الأعلى قلبه، واحتلت عليه وحدانه لا يفرغ إلا إليه، مختصا "لا إله إلا الله".

همل سمعت يونس عليه السلام إذا التزمه الحوت فغاص في ظلمات بطنه، وظلمات البحر والليل، ثم ظلمة الغم الشديد الضاربة على تلك الظلمات جميعا، ألم تسمع ماذا قال؟ يقول رب أعوذ بحاكيك عنه: ﴿هَذَا فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧). لقد كان أول التعبير استغاثة وجدانية ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾.. لاملك مواجيد القلب إلا أنت! لا محسوب، ولا مرغوب، ولا مروء، إلا أنت! ثم كان التوسل والتسوية فالاستغفار... يا سلام... أي حال هذا وأي كمال؟! وأي أفق كريم فيما يتجه هذا الدين السماوي للقلب من سباحة وسباحة في عرض للكموت لاستنار ووردات الأمل والرحمة؟ بوس هذا العبد العظيم الذي أدرك -وهو في بطن حوت ضخم جدا، يخوض به المحنول، في قاع المحيطات الرهيبة- أن القلب إذا امتلأ بنسور الله كان الله معه؛ ومن كان الله معه أمن أمنا كليا، فلا يعنو هول البحر والحوث حينئذ مقدار حشرة في مستنقع.. الله أكبر!

حقيقة الشرك وجذوره القلبية

إن شهادة ألا إله إلا الله هي توقيع عقد، وإمضاء التزام، بضمان الهوى لله وحده كما في الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما حثت به" (صح إداري ٣/٢٨٩)، وكل ما جاء به ﷺ هو "الإسلام". وقد علمت ما في هذا العبارة من معاني الخضوع للرب الأعلى. خضوع يفرغ القلب مما سوى الله. وهو أمر في غاية العمق الروحاني، والتحقيق الشعوري، ولذلك صعبت كلمة "لا إله إلا الله" على كفار قريش أن يقولوها، وهو أمر طبيعي، فقد أدركوا بفطرتهم اللغوية السليمة أن هذه الكلمة تعيد لمشاعرهم،

^{٥٤} جامعة مولاي إسماعيل، ورئس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

من أجلك بناء إنسان سليم

النفس.

فإن توقعت

من إنك النجاس

فسوف ينح وك توقعت عدم

التحسن فمن يتحسن. ولي تجربة في هذا الشأن؛ حين كنتُ

أعمل معلية للصف الثاني الابتدائي كان بين تلاميذي طعل

ليست لديه ثقة في نفسه ولا ينظم وأحبه ولا يهتم بدروسه،

وكت أرى أن لديه قدرات عالية، بينما كان مستوى تحصيله

ودرجاته متوسطة بالنسبة للفصل. فجلست معه وحادثته عن

نفس في قدراته وإمكاناته وأن لديه ما يحكمه من العوق والتميز،

ومألي هل أنا صادقة في ذلك فعلا، فأجته بالثأكيد، ثم سألي

هل أسبه فأكدت له ذلك.

كانت النتيجة مبهرة لي حينما احتاز اختبار الشهر بعد عشرة

أيام تقريبا من هذا اللقاء وحقق المركز الأول على الفصل، هذه

مرة التوقع الإيجابي والحسب. قل "أبي لديه قدرات ومهارات"،

ولا تقل "أبي يعاني من مشكلات"، فالشأنك بتعمر وتعمر وجهة

ال نظر سواء سلبية أو إيجابية.

تأهد عبد النعم*

عزيري الأب عزيري الأم أعراني المعلمين والمربين..

لما كانت مهنتنا هي بناء الإنسان، وهي ليست

بالمهمة السهلة، فإن علينا أن نتعلم ونفكر ونعده

وبدع حتى يستطيع الموهوب أنثنا من خلال هذه الميزات

الصغرى، والتي تحتاج إلى أساليب خاصة في رعايتها وتتميتها

بالشكل السليم. لذلك كان علينا أن نتعلم بعض الأساليب

ونكتف عن الأخرى حتى نلجح في هذا الدور العظيم. وسوف

أقوم بتقديم بعض من هذه الأساليب مدعومة بخبرات حية مرت

بنا خلال عملنا في هذا المجال.

ليكن توقعك من ابنك إيجابيا

فالتوقع الإيجابي يؤدي إلى تحسين الأداء وإلى مزيد من الثقة في

ع



كُفِّ عن المقاربة السلبية

الرايب إلى الضعيف أو من الضعيف إلى المتوسط، فبدلاً من إشعار الطالب أنه ضعيف، تصله رسالة أنه نجح في الانتقال إلى المستوى الأعلى. هذه الفقة من الطلال لم تكن لحلم بالمكافأة والتعزيز أبداً، فقد كانت حكرًا على المتأخرين والأوائل، لذلك كانت هذه الفقة لا تتخطى مستواها، أما الأسلوب الجديد فهو يجر للطلاب التعزيز والدافع للتقدم بشكل أفضل، هذا بالإضافة إلى الشعور بالنجاح والسعادة والارتباط إيجابياً بمصدر التقدير وسبب التعزيز.

احرّض على الروابط الذهنية الإيجابية

غنى حريصون على إكساب أبنائنا الكثير من المهارات والمعلومات، ولكننا نتجاهل الربط بين الامتحانات الإيجابية وما يتعلمه أبنائنا وطلاننا؛ فيجب أن يقرن موقف التعليم أو التربية دائماً بمشاعر مثل "السعادة والتفعل"، فذلك يساعد على سرعة التعلم والاستمرار في السلوك المرغوب فيه.

تصور أن الكلمات المطبوعة والتي يتألف منها الكتاب يمكن أن تعرض على التلاميذ كمثيرات لانفعالات إيجابية كالتفعل والأمل، أو السلبية كالخوف والقلق والتوتر.

عرضت على ظاهرة غريبة في إحدى المدارس حيث كانت تعاني أغلب الطالبات في صفوف بعضها من آلام شديدة بالطن وشعور بالتيان، وذلك في أوقات معينة أبعاء، وعند توقيع الكشف عليهن لا توجد لديهن أية مشكلات عضوية، وشتيع هذه الظاهرة وحد أن أحد مدرّسيهن يعاملهن بشيء من العطفة، وأحياناً يعاقبهن عقاباً بدنياً، ويعالج هذا الأمر انتهت الظاهرة تماماً.

إذا أردت أن يحرص ابنك على عمل معين فلا تربطه أبداً بالعصا والوجه المتعهم، بل الوجه المشعشع والوجه السارة وكلمة التعزيز... حتى يكون ابنك حريصاً عليه وعلى تكراره.

هذه بعض المهارات التربوية والحوات التي تساعدنا على تربية أبنائنا في إطار من المشاعر الإيجابية والتي تصلهم هم في تحقيق النجاح والسعادة على حد سواء. وتذكر أن استخدام الأساليب التربوية الخاطئة لها تأثير سلبي على النمو النفسي للأطفال، وأما وراء الكثير من عيوب الشخصية ومشاكل التحصيل الدراسي. فكن عزمي المرّبي أكثر حرصاً وأنت تري أبنائك حتى تصلهم إلى بر الأمان. ■

لا تقارن ابنك أو تلميذك برفاقه أبداً، فإن هناك فروقا فردية بين البشر؛ ولكن يمكنك أن تقارن ابنك بنفسه، أي ما كان عليه سابقاً وما أصبح عليه الآن. وهذا سيساعدك على تربية وتنمية مهاراته بشكل كبير.

تحدث إلى أحد طلابي ذاكرًا أنه لم يكن متفوقاً أبداً ذلك لأن أخويه كانا يحققان مراكز متقدمة دائماً، إما الأول أو الثاني. أما هو فكان متوسط الأداء وكانت أمه تركز على ذلك؛ كانت تطحن أمه تبت فيه الحماس بينما الواقع أنها كانت تحمده لمرعات من الإحباط للمثاقفة. قابلت هذه الأم وتحدثت معها بالأم وأما يجب أن تكف عن ذلك وتقارنه بنفسه، وتبحث عما يتميز به وتعرّضه عن تعيد إليه تقديره لذاته. وبالفعل تحسّن هذا الطالب كثيراً وراحت ثقته بنفسه.

امنح ابنك فرصاً للنجاح

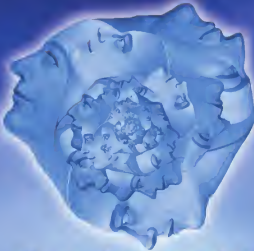
النجاح يولد النجاح، والعشيش يضعف ثقة الطفل بنفسه ويجعل تقديره لذاته ضعيفاً لذلك امنح ابنك المرحس لكي يجرب الشعور بالنجاح المرتبط بالسعادة... كلفه مهام بسيطة يستطيع أن ينجح فيها، فذلك يجعله قادراً على إنجاز مهام أكثر صعوبة. ولا تسمخ بأن تمر بالطفل حرات فشل متلاحقة حتى لا تتخضع دوافعه لتمام العمل بصفة عامة وربما العزوف عنها تماماً.

وكرّ على أساليب الثواب أكثر من العقاب

إنابة الطفل على السلوك يجعله حريصاً على تكراره ويشعره بالسعادة والرضا، والأهم من ذلك أن الطفل يرتبط بمشاعر إيجابية اتجاه مصدر التعزيز والإثابة. أما العقاب فإنه يؤدي إلى كفف السلوك ولا يعطي للطفل السلوك البديل المناسب، ونتائج العقاب تستندعمي على الشبوع، فالنسواب يقول للطفل "كرّر ما فعلت"، أما العقاب فيقول له "توقّف عما تفعل"، وبفشل في أن يجد للطفل البديل الذي يفعله، وقد يؤدي العقاب في بعض الأحوال إلى تبيت السلوك بدلاً من عموه، وربما يظهر السلوك تانيا بمجرد انتهاء الحالة الانفعالية للطفل. وأسوأ نتائج العقاب أن يؤدي إلى كراهية الطفل للعمل الذي أدى إلى العقاب. لذلك عليك أن تستلخدم الإنابة أكثر بكثير من العقاب، وعندما تأمر طفلك أن يكف عن سلوك ففله له البديل.

ومن التطبيقات الجيدة التي كان لها أثر جميل تعزير الطالب عندما ينتقل من مستوى إلى مستوى أعلى، حتى إذا انتقل من

(١) عبودة في مجال التربية، جمعه مصر المحروسة بلدى، القاهرة / مصر.



الفروق الفردية

في العمل المشترك

د. سليم آيدين*

العضو نحماس زائد قناعته الإيجابية حيال المشروع، فإن البعض الآخر بعدد مشاكل محتملة واحدة تلو أخرى مركّزاً على نواقص موحودة فيه. أمّا بعضهم فيُعلن أن الوقت لا يكفي لاتخاذ قرار حاسم وأنه يحتاج إلى يوم آخر على الأقل للدراسة الوثائق كلها ومراجعتها من جديد فيؤجل قراره إلى وقت لاحق.

وبسبب هذا التباين في الرؤى، فإن القرارات في عالم الأعمال لا تحسم إلا بعد عدة اجتماعات تُعقد فيما بين فرق عمل يتم تشكيلها بمشاركة الخبراء والمختصين أولاً، ثم تُقدّم النتائج إلى الإدارة العليا متسفوعة باقتراحات حلول مختلفة. والإدارة العليا تناقش المشاكل حسب حجمها وترتّب، وتقيم الحلول والمقترحات المُقدّمة وتُفاضل فيما بينها، وإذا لزم الأمر يعاد البحث عن حلول أخرى من جديد. وفيما بعد فإن القرارات المُتخذة يتم متابعتها من قبل رئيس الإدارة المسؤول حيث يتدخل فوراً في حال ظهور مشاكل أثناء التطبيق ويأمر عواصلة الإنتاج وتدفقه.

إن إحدى المشاكل التي تبرز في اجتماعات العمل المشترك ومباحثات المؤسسات هي الفروق الثقافية لدى أفراد الفريق، مما يفتح السبيل أمام صعوبات في الإدارة. وإذا شاركت في إحدى جلسات فريق من هذا النوع كمراقب، فستلاحظ المشاهد التالية:

تباين كبير في الرؤى

معظم التسهيلات تُفضّل العصف طوّل الاجتماع؛ وبعضها دائم الحديث وفي مقدمة الصورة؛ والبعض يصح السليبات على الأحدث صفة مستمرة مشيراً إلى المظاهر المحتملة؛ والبعض الآخر يُلحّ على الفوائد التي سيؤدي إليها المشروع الجديد. وبما يحدث هذا فإن البعض لا يشارك في النقاش قط، ويغرق نفسه في المستندات والرسومات والبيانات المُقدّمة حول المشروع، يلقّب فيها في صمت محاولاً فهمها. وقبيل انتهاء الاجتماع، بينما يعلن

النمطية الشخصية.. نافذتنا إلى الحياة

إن علم النفس الحديث قد أوضح أن "النمطية الشخصية" أي السمات والسمات التي يمتلكها الفرد، تحدد إدراكه للأشياء، وتؤثر عليه في اتخاذ قراراته، وتوجهه في طريقة إقامة اتصاله ومعالجته للمشاكل، لأن الإنسان لا يستطيع فهم الأشياء والخبرات على حقيقتها، بل يراها من نافذة نوعية شخصيته الذاتية. وهذا السبب فإنه يظل خاضعاً لمحددات تلك النافذة.

إن إدراك الحياة من النافذة الشخصية مُربح ولا يحتاج إلى عناء. لذلك نقف في أغلب الأحيان متابعاً الحياة دون أن ندرك خطورة خارج نطاق هذا النافذة. ولو أن المرء اكتسب قدرة التعرف بين ما هو عائد لنوافذ الأنماط الشخصية الأخرى، فإنه يستطيع أن يقتصر فرصة النظر إلى الواقع والأحداث من نافذة شخصيات أخرى، ويضع نفسه مكان الطرف المقابل. وكذلك نحن لا نشعر بكل ما هو في محيطنا كما هو، بل نحس به وفقاً للطريقة التي نحس بها ذواتنا أو أنماطنا الشخصية. فكل واحد منا يستوعب الحياة من حوله بشكل مختلف ومتفق مع شخصيته. ومن بين الحياة الحافلة بأنواع الجمال اللاهائي ميل إلى شيء معين دون الآخر بل ويغلب عليه. فأنت ترى رجلاً يبدل العالي والقصير لكي يتأقلم مع البس ويرافقهم دوماً، بينما ترى آخر يتباعد عن المجتمع ويعمل أن يريح عقله وفكره بالقراءة والمطالعة. والحقيقة أن الأشياء التي نحبها والتي نطلق عليها اسم "الهوايات"، ما هي إلا إشارات تدل على العناصر الرئيسة في أنماطنا الشخصية.

وقد جاء في القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَحَقْلَكُمْ شُجُورًا وَقَبَائِلُ لَعَارِفُونَ إِنَّا نَكْرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (نحشروت: ١٣). وإن هذه الأنماط من الشعوب والفئات التي مر ذكرها في الآية الكرمة يوجد فيما بينها فروق شخصية وتوزيعات عديدة. وفي ضوء آية أخرى من القرآن الكريم يتضح أن كل إنسان يتصرف وفقاً لقطرته: ﴿فَقُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرُكْتُمْ أَفْعَمُ يَسَّرَ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٤). فالآية تدل على أن كل شخص يحمل مشاكله حسب فهمه الذاتي وفروقه الفردية.

القطاع الخاص و"زمن الإنتاج والعمل"

إن شكل اتخاذ القرارات في القطاع الخاص لا يشبه شكل القرارات التي تصدر عن القطاع العام أو في الأوساط الجامعية

الأكاديمية؛ إذ لستما كان القطاع الخاص مؤسسياً على الإنتاج، فلا يملك إمكانية تحمل تكاليف تأخر الإنتاج، فليس في القطاع الخاص مفاهيم مثل "تصدير الآن وتنتظر وتترك الحل إلى الزمن"، ولا مكان كذلك للأفكار التي تطرح عصر الزمن وقيمتها حالياً ولا تضعه في عين الاعتبار.

هذا، ومن أجل تقييم عصر الزمن في القطاع الخاص تم تطوير ساعة خاصة بهذا الغرض أطلق عليها اسم "ساعة المؤسسة" أو "زمن الإنتاج والعمل". وإن أهمية هذا الزمن وقيمتها لا تقاس بالثواني أو الدقائق المنصرفة، بل يتم تقييمه تبعاً للمكاسب التي تتحقق من وراء الإنتاج المتجر في ذلك الزمن بالذات، وتبعاً للخسارة التي كان يمكن أن تأتي خلال ذلك الزمن لو لم يتم استثماره. فالفرق بين المكسب والخسارة هو الذي يحدد قيمة هذا الزمن. وبالسبب هؤلاء الذين يستعملون "زمن الإنتاج والعمل" فإن عقد اتفاقيات حول استغلال الوقت في غاية الأهمية؛ في حين أن الذين يمحسون حياتهم وفق معايير الساعة العادية، فإن اتفاقيات الزمن هذه أمور غير محبوبة. وفي القطاع العام، حيث يتم تقديم الأنظمة البيروقراطية والندرج الوظيفي على الإنتاج عادة، فإن هذه الصورة أمر طبيعي وشائع. ولدى المقارنة بالقطاع الخاص، فإنه توجد في الأوساط الأكاديمية حرية واسعة في استخدام عصر الزمن والمصادر المالية وبشكل إجمالي؛ إذ ما أن يتوفر التمويل المالي للمشروع الأكاديمي حتى يتمكن الباحث من الانطلاق في المشروعات التي خطط لها، كما يمكنه أن يقوم بتجارب حول الفرضية التي طرحها وأن يجرى أبحاثه وفقاً لنوعية أداته. فإذا كان الأكاديمي منتجاً في حد ذاته كفرد، فلا يمكن أن يستجوبه أحد عما أنتج، فهو صاحب الصلاحية في البحث الذي يديره.

النمطية الشخصية في العمل الجمعي

ولكن إذا ما اضطر الباحث الأكاديمي إلى العمل لدى القطاع الخاص، فإن قواعد اللعبة تتغير؛ حيث إن الشركة مضطرة إلى أن تعمل على إنتاج مشترك يتم بشكل جماعي ووظيفي بين فرق وأقسام مختلفة بهدف تحقيق مهام الشركة وأهدافها. بالإضافة إلى هذا، فإن المعيار الرئيسي في المشاريع المطروحة للدراسة والتصنيع هو كونها صالحة للتسويق أو قابلة للبيع. من هذا المنطلق، فإن الخبراء من شتى فروع العلوم يجتمعون في الشركات من حين لآخر حول مائدة ليشابوا أحوالهم سعياً نحو إيجاد منتج جديد غير مسبوق أو خدمة جديدة. ولهذا فإن كل شخص في نهاية

وإذا كان دأبه أن يختار الشخصيات التي توافق وتصادق على مبادئه فقط دون أي اعتراض، فإنه سيتمكن من الإدارة، نعم، وسيكون متواشياً ومتديناً مع المؤسسة ومجموعة العمل، ولكن مؤسسته ومجموعته لن تحقق إلا نسبة محدودة من الإنتاج والإبداع والإنجاز الرفيع.

هذا، وإن إدارة الأنماط الشخصية المختلفة وتحويل فروقهم الفردية إلى ثراء أمرٌ صعب المراس. ومن جهة أخرى فإن العصر الجماعي للشعور بالخواص والمتشكك من مجموعات ذات سمات شخصية مختلفة يقلق السلطة المركزية في أغلب الأحيان، ويُلقَى به حائلاً ولا يوضع في عين الاعتبار.

الزعامات والأنماط الشخصية

وإذا كانت الأنماط الشخصية تختلف لدى الزعماء، فإن توعية الزعامات وطريقة أدائها أيضاً تختلف وفقاً لاختلاف النمط الشخصي؛ حيث إن كل مجموعة تمطية تضع بعداً من أبعاد الزعامات في مقدمة إستراتيجيتها. تذكرنا مثلاً الإجراءات الحياتية للحلفاء الراضين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، فنجعل أن إخراجهم المؤلة كانت انعكاساً لطبيعة مجموعاتهم الشخصية التي يتبنون إليها. وتذكروا كذلك "نفرسل" و"هتلر" و"غاندي" و"طورغوت أوزال" وزعماء آخرين، فإنكم سترون أن ستين بالمئة من الاختلافات الإجرائية تعود إلى الفروق الموجودة بين الأنماط الشخصية التي يتبنون إليها. ومن هذا المنطلق، فإن الزعيم العالي الضام الذي يتمتع بشعبية جماهيرية واسعة في عصرنا الحاضر، لا تقوم زعامته على مفهوم الشخص الأحدث، إنما تقوم على النظام الشوري والشعور الجمعي المشترك، وعلى الشخصية للوعي التي تتكون من مجموع الأفراد الذين يحملون السمات المختلفة للزعامات.

تحويل الاختلاف والتنوع إلى ثراء

ويتضح من هذه الحقيقة أن أكثر المؤسسات بُدداً وغطاء هي تلك التي تأسست من اجتماع شخصيات خيرة متمية إلى أنماط شخصية مختلفة؛ إذ إن عصر كل مجموعة شخصية قد يترك جزءاً ضئيلاً من الحقيقة الشاملة، إلا أن إدراك الحقيقة كاملة يحتاج إلى عمل دؤوب بصورة مجموعات وهيئات استشارية تتكون من أنماط شخصية متنوعة. كما أن التشاور وتبادل الآراء ينبغي ألا يتم عبر بضعة أشخاص من نفس المجموعة فقط، بل يجب أن يتم ذلك عن طريق شخصيات ذات خبرة واسعة، ومجموعات عمل

اجتماعات الفريق يكون مجزاً على إجراء أبحاثها طبقاً لتقسيم العمل في المشروعات التي تم إقرارها على ضوء المعطيات المشتركة التي ظهرت في نهاية هذه الاجتماعات.

وهكذا فإذا أراد شخص أن يعمل مع فرق ومجموعات مختلفة في القطاع الخاص، فإن شركته ستجلب له فرصة للتدريب في عدة ندوات وندوات حول التنمية الشخصية في قسم الموارد البشرية للشركة. وعند سؤال الأفراد الذين شاركوا في هذه الندوات التدريبية والتعليمية عما حصلوه من مكاسب، فقد أجابوا بصفة عامة على النحو التالي: "لقد أدركتُ أن الحوار السليم مع أناس يتمتعون بخبرات علمية متعددة تعود إلى أنماط شخصية متنوعة، قد أُنح مساهمة وقيمة عظيمة وقيمة إضافية أخرى. وتعلمتُ طرق رفع مستوى الذكاء الجماعي في الفريق الواحد، وأول هذه الطرق هو ضرورة تكوين فرق من أفراد ذوي حرات مختلفة تعود إلى مجموعات ذات قدرات هدية مختلفة أيضاً، والعامل الأهم في رفع نسبة المخترعات والاكتشافات المبتكرة هو تأسيس الحوار بين الأشخاص لتنشرون إلى أنماط شخصية ذات فروق خاصة. وثاني هذه الطرق وجوب إحشاء تبادل وتجاوز بين العلوم التي تتوفر في نطاق البشرى الموجود من شتى فروع العلوم المختلفة. أما ثالثها فإن كل عضو في المجموعات التي تشكلت على هذا النمط، لا بد أن يعرف على طاقاته ولط شخصيته الذاتية، ويؤد بالتعليم والتدريب الذي يُمكنه من إقامة اتصال سليم مع الأنماط الشخصية المختلفة".

كيف تعرف نمطك الشخصي؟

ولكي يتمكن الإنسان من تحديد المجموعة النمطية التي ينتمي إليها، يجب عليه أن يراقب نفسه ويتابعها عن كثب، ويتبين الميل والرياحات الباطنية التي تتحكم فيه وتوجه أفكاره وتصرفاته. وإذا نظر إلى تصرفات ومواقف ظاهرية فقط، فسيصعب عندئذ التعرف على نمطه الشخصي، لأن المواقف والتصرفات الظاهرية في أغلب الأحوال هي تصرفات قد تمت بشكل شعوري ونحت سيطرة المنع الواعي. وفي الحقيقة إذا ما أريد تشكيل مجموعات استشارية وأطقم عمل ذات تأثير فعال، فالشرط الأول لذلك، ليس جمع شخصيات خيرة في مجالات مختلفة فقط، بل ويجب كذلك تشكيل فريق من الخبراء متغايير الخواص والصفات من حيث اتصافه إلى أنماط شخصية متنوعة. وإذا كان قائد المجموعة أو مدير المؤسسة لا يتمتع بهذه الرؤية في تقييم الأنماط الشخصية،

ذات هزول فردية تستطيع أن ترى الأبعاد المختلفة للأحداث والقضايا، حتى يتم الوصول إلى الحقيقة الشاملة، ويقف احتمال الإحباط، ومن ثم يمكن تنمية العطاء ورفع الإنتاج. ألا تُشير رسولنا ﷺ في حديثه "اختلاف أمني رحمة" و"رواد الطمان" إلى أهمية اختلاف الأفكار فيما بين المجموعات البشرية ذات الغزول الشخصية، وذلك في فهم الأحداث وإدراك الجوانب المتباينة لها؟! إذن لا يملك الإنسان قابلية استيعاب الحقائق الكلية التي تتعلق بالوجود والأحداث، حيث إن علم البشر محدود للغاية لأنهم لا يستطيعون تقييم الوجود والأحداث إلا من نواحيهم الخاصة ومن الزوايا التي توفرها لهم أنماطهم الشخصية. وهذا النطاق المحدود لا يمكن تجاوزه إلا بالعمل الجاد والبحث التعاوني والشعور الجمعي والذكاء الجماعي.

معادلة "أنا" و"نحن".. رؤية مستقبلية

وإن الأعرام المثلى تستشهد زيادة ملحوظة للقيمة التي تُمنح للعمل التعاوني والشعور الجمعي والذكاء الجماعي. وإن الإنتاج والماء والتقدم الحاصل من العمل الجماعي، سيزداد أو ينقص حسب العناية التي توليها لأنماط الشخصية المختلفة وتقدم الجوانب للتمرة لديها أو إهمالها.

ومن ثم إذا لم ينشأ المرء إلى هذه الحقيقة فلن يستطيع أن يخرج من سجن أنانيته وشخصيته، بل سيقع في عقدة عدم فهم الشخصيات الأخرى وإتباعها وطريقة قراءتها للحياة. وأسوأ ما في الأمر أنه سيشكل عقبة أمام التطور واستمرار الإيجابيات الشخصية المختلفة في مؤسسته وأطقمه البشرية، وذلك بسبب المراتب التي ينتهجها وفقاً لشخصيته. وإن طريق الخلاص من مرض الأنانية هو معرفة الشخص لنفسه والوقوف على حقيقته، والتعَلُّب على مواطن ضعفه، والانتقال من الأنانية إلى الذوق في "حوص التَّخَوُّتِ"، أي إن اندماج "أنا" في بحر "نحن" هو الطريق الأوحد لإثراء الحياة والمستقبل، وللخلاص من أزمات الأنانية. ■

المبشر بالخلود

بالخلود بَشَّرَتْ،

والخوف من الزوال والعدم محبوت،

والقلوب رويت،

وحزنها مسحت،

وإلى الحب دعوت،

وبه إلى ربك عرجت.

فحبك للإنسان هو الأعلى نعمًا،

والأعذب لحناً في سمفونية الكون،

فما أعظم كلمتك،

وأجل رسالتك...

٥٤ كاتب وباحث تركسي، الترجمة عيسى التركيب: أ. د. الصفيان أحمد

إلى جبل قاف



محمد أوزار

ح حان وقت الرحيل... لم يكن من السهل عليه
مفارقة أهله وأصدقائه، ولا سيما أمه. نظر إليها
لأخر مرة، طمّح الدموع تحسّداً على حبيبها..
أمسك بيدها في وداعة وحنان وقتل حبيبها بخارقة، قالت له:
- رقتك السلامة، أستودعك الله يا ولدي.

صعد للعرش الشباب الطائرة دون أن يلتفت إلى الوراء، وما
ليت أن راحت عواطفه وراحت دموعه تتساقط بعزلة.. وداعاً
أيها الأم العريقة، وداعاً أيها الوطن الحبيب... كلمات أوقدت
غيب العربة في كبد، فتمتم "طوبى للعراء.." إنها لمسؤولية
عظمى.. إنها لرحلة مقدسة، رحلة إلى ما وراء الوراء. بعد
خطوات أفلحت الطائرة بحلقة في السماء.

كان يركب الطائرة لأول مرة، ويفسّاق وطنه لأول مرة.
نظر إلى المسحب المتركة من النافذة الصغيرة وعرق في عالم
من التأمل. تذكر الحبال الشائعة التي كانت تحته لكي له عنها
في طفولته: "كان يا ما كان في قديم الزمان، كان في الأراضي
البعيدة جبل شاسع يدعى جبل "قاف".. ولا يمكن الوصول إليه
إلا على ظهر طائر العقاء.." جبل قاف وطائر العقاء... ماذا
كانت تعني حذته بلاتين الكلمتين بسا ترى؟ بدأ يتصور أن جبل
قاف هي بلاد التفقاس، وطائر العقاء هي الطائرة التي تنقله إليها.
إذ، إنه مسافر إلى ديار التفقاس والأحلام ليصبح أحد أبطالها.
حقق قلبه هذه الفكرة ثم قال في نفسه: "لا شيء يجعلنا عظماء
غير خدمتنا لرسالتنا الإنمائية وسعينا لبيل مرضاة ربنا". تألّأت
عيانه الواسعتان وشرع بسعادة لا توصف. تذكر أنه يحمل في
أصابعه رسالة مقدسة. ولكن هل يستطيع أن يرفيها حقها ويقدم
إلى هؤلاء الناس كل ما في قلبه من حب وحنان؟! وم لا؟! إنه
سيقول لهم:

"مرحبا.. حتكم تحية الزهور والورود من تركيا.. حتكم
لإعادة بناء أوطاننا من جديد.. حتكم لتقيم صرح أرواحنا معاً
وننشر روح المحبة والإيمان والفضيلة في كل أنحاء العالم.."
شعر برود قارس وراح برنح عند أول خطوة بخطاها خارج
الطائرة.. لم يكن متعادداً على مثل هذه الأحوال.. كانت عاصفة
الغفاس مغرورة بالثوب وقد تردت حلتها البيضاء الناصعة..
خرج من المطار التواضع وأحد يسير في شوارع المدينة. إنه لا
يعرف أحدًا هناك.. قسوة البرد لا تطاق.. احتز ألا ينزلق فوق
على الجليد الذي يعطي كسراً من الأماكن في الأرضة. لا بد

من الذهاب إلى قديم. رأى مجموعة من الشباب، اجترّب منهم
وحاول أن يتقاهم معهم بالتركية ولكن دون جدوى سبب
اختلاف اللهجة. حاول بكل ما لديه من جهد أن يفهمهم أنه
أتى من تركيا ويبحث عن قديم. وما أن أعلن بكلمة "تركيا" حتى
احتضنه بعضهم بشوق الأخ الذي عثر على أخيه بعد فراق
سنتين. رافقه إلى قديم متواضع جدا وعبارات السرور تعلو
ووجههم وتنعكس على تصرفاتهم المرحية. قضى ليلة مريحة لم
يستطع فيها النوم من شدة البرد والرطوبة.

وفي صباح اليوم التالي كانت المرحلات تزيل الثلوج المتركة
على الطرق. لاحظ أن أغلب الأبنية في هذه المدينة ذات طابقين،
وأزقتها ينسحب بعضها بعضاً. رأى في أغلب الفنادق والشوارع
والأزقة تماثيل "ليين" وصور شخصيات هامة وعبارات وطنية
حماسية على الجدران، ثم جنود القروس المسلحين... كانت
الصورة العامة بالنسبة له كالخلة ورمادية بعض الشيء، إذ لا
ترى رموز الشيوعية تسيطر على كل مكان في هذا البلد بينما

وكان وقت إقامة الجسور من جديد، وتوزيع أخوتنا بالعلم والفضيلة والإيمان.

قال الرئيس وقد بلغ منه التأثير مبلغاً:

- ما أحمل حديثك يا أخي، أتيت.. لودحك.. من أهلكا.. ودون مقابل؟!.. لك كل ما تريد، افعل ما شئت وأبنا شئت. وبعد يومين شرع عاصم بالعمل لإقامة المدرسة في البناية التي خصصها له الرئيس.. راح يعمل بكل ما في وسعه من جهد وطاقة.. عليه أن ينتهي من العمل خلال شهر ويبدأ بالتدريس. وبعد شهر كامل تم تسجيل خمسين طالباً، ثم وصلت المعدات للمدرسة والمستلزمات المطلوبة الأخرى.. وهكذا فتحت أولى مدارس اللحية في ديار القفقاس. كان عاصم يهتم بالتدريس وشؤون المدرسة في آن واحد، فلا يدري كيف يمضي الوقت، لكنها كانت أسعد أ أيام حياته على الإطلاق رغم كثرة المشاغل والإرهاق. وفي أحد الأيام جاءه إسماعيل، أحد طلابه المحتجين ودعاه إلى زيارة أهله في القرية. لم يستطع عاصم أن يرفض دعوة تلميذه الأثير:

- ولكن كيف سنذهب؟

- على عربة الخيل يا أستاذ.

كان الثلج والجليد يغمران كل مكان.. والضباب يغطي قسم الخيال.. لأول مرة يركب عربة جليد، يشعر بالخوف والقلق في البداية ثم بالبرد الشديد الذي أوشك أن يجمد يديه وقدميه.

- كم يستغرق الطريق إلى القرية؟

- ساعتين..

- ماذا!.. لإسماعيل، كل يوم تقطع هذه المسافة لتأتي إلى المدرسة؟

- أجل.. إنها رغبة أهلي.

كان الطريق موحشاً وكان الظلام باقي بظلاله الكثيفة على كل شيء مع شدة البرد. بعد ساعتين قال إسماعيل:

- وصلنا، ها هي قريتنا.

وأشار إلى أضواء القرية التي تلتأ في حوف الظلام. شعر عاصم أن يديه ورجليه قد تجمدت تماماً من البرد. فما استطاع السورول من العربة إلا مساعدة تلميذه.

فُتح الباب ببطء وظهرت امرأة طاعنة في السن متلعنة يوشاح من صوف غليظ تمسك بيدها مصباحاً، قالت مبتسمة:

- أهلاً أهلاً تفصلوا.

كانت حدران غرفة الجلوس مقفلة بالسجاحيد التي تبعث دفءاً مهيماً في النفوس والأبدان. جلس عاصم على أريكة

هو كان لا يحمل سلاحاً غير سلاح العلم والأخوة... كان ذهنه مشغولاً بإيجاد سبيل لبناء مدرسة هنا.. لإيقاد شعلة إيماناً يستدفع بها أبناء هذا البلد الضيق.

سأل عن القصر الرئاسي، ولما علم مكانه اتجه إليه فوراً. في البداية أتي الخسود أن يدخلوه المبنى، لكن لما علموا أنه قادم من تركيا أطلقوا ضعاعات الفرح وأبلغوا أمره إلى الرئيس مباشرة. استقبله الرئيس أمام باب غرفة بترحاب حار. إنه من النادر جداً أن يروى هذه الديار العجدة أحد من تركيا.

- أتيتم من تركيا إذن.. أهلاً بكم..

التسببت أساور عاصم وحل السرور فيه:

- سيدي الرئيس، حترتم بزيارة لإخوانكم من تركيا..

قدم للرئيس العلم التركي مع بعض الهدايا التي جاء بها معه. تأثر الرئيس كثيراً وغلغله عواطفه واغرورقت عيناه بالدموع:

- شكراً حزيلاً، أنت إنسان طيب وأخ كريم.

تفحص الهدايا بدقة ثم استلشق والاحتها:

- إنها رائعة تركيا، نعم تركيا..

أخرج "عاصم" من حقناته مصحفاً وقمعه إلى الرئيس، ففحص مندهشاً:

- ما هذا؟!

- المصحف الشريف.

ترقرقت الدموع في عينيه.. تناول المصحف بأدب حمّ وراح يقرئه يشوق عارم. لاذ بالصمت لحظات وقد ضم المصحف إلى صدره محب.. نظر إلى عاصم بسعادة كبيرة:

- أيتها بروحنا يا أخي، أعدت إلينا سراجنا الذي هقدناه منذ عقود. أذكر وأنا طفل صغير أن حدي كانت تقرأ القرآن خفية. لا أعرف كيف أشكرك، كان حدي يمدحني عن تركيا كثيراً.. مدينة إسطنبول مباركة بالناس لدا.. قل لي أيها الأخ العزيز ما الذي أتي بك إلى هذه الديار النائية؟

- أتيت لأفهم مدرسة يا سيدي.

- مدرسة؟!

- نعم مدرسة. أريد أن أفهم مدرسة على غرار مدارسنا المنتشرة في كل أنحاء تركيا.

- لإقامة مدرسة؟! أتيت لودحك!..

- سأبدأ العمل لوحدي، لكن سأسأل من تركيا مئات المتطوعين من المدرسين ورجال الأعمال. سيدي، لقد أقرقنا عن بعضنا طيلة سبعين عاماً بسبب الشيوعية، لكن انتهت القرية،

متواضعة.. كان يأثم من عذر رجله ويديه. جلست العجوز قبالتها وراحت تقرب للمصباح من وجهه لتراه جيدا... فقال لها إسماعيل وهو يتنسم:

- جديني إنه معلى الأستاذ عاصم.

- من أين؟

- من تركيا

تجمدت في مكانها دون حراك، ارتجفت يداها:

- جديني... ما بك، هل أنت غير؟!

أعنت النظر مرة ثانية في حيرة مملوكة بالهتة وقد شحب وجهها واضطربت حركاتها وابتلأت عيناها بالدموع. فتمت بتأثر عميق:

- أنا أعرف هذا الوجه...

انفض عاصم باستعراب، بينما برزت الدهشة على ملامح حفيدها أيضا.

- نعم أعرفه... إنه هو... هو..

أرعى الصمت سدوله على أطراف البيت لحظات. فلم تستطع الجدة الوقوف أكثر على قدميها، فجلست دون أن يفارق بصرها وجه عاصم.. تهللت في حسرة:

- لم تستطع مقاومتها، كانوا مسلحين، يقتلون كل من يعترض طريقهم على الفور. لم تمنح تلك الأيام في ذهني أبدا.. أيام الانقلاب الشيوعي في عهد "لنن". كنت صغيرة وكان الوقت بعد منتصف الليل، استغرقت في نوم لئلا أسمع صوت أمي التي كانت تمكيني في قصة الأمير السني بأني من وراء حيل قاف على طائر العنقاء لينقذنا من المأساة التي تعالي منها. وإذا بصرخات أفلقتني من النوم، رأيت الدبابات تدوس كل ما يعترضها في الأفرقة، والجنود يطلقون الرصاص على أبناء القرية، وصعدوا في عربة قطار للحيوانات نساء ورجالا صغارا وكبارا...

ابتلعت ريقها وسكنت ثم تكررت بصرها على الجدار واستطردت:

- ما نسيت تلك الليلة يا ولدي. انقطار يسر، والثلج يعمر الأرض، والبرد قارس. كنت أبكي من الجوع، مات أعمامي وماتت جدي وبعض الأطفال بسبب البرد والجوع والتعب. "نحن في اللقي يا حبيبي، وسوف نعود إلى وطننا يوما"، هكذا كانت أمي تقول لي. كانت الشيوعية واللقي نفس الشيء بالنسبة لي.

انغذبت الكلمات في حلقها:

- وبعد سنوات مات أبي وأمي، وبقيت وحيدة في هذه الحياة. ولكن ما نسيت كلام أمي أبدا "سوف نعود إلى وطننا

يوما". عرمت على الحروب فهيرت. وبعد عاء كبير وصلت إلى وطني فاستشفقت واتمة تراه بشوق وشكرت للمولى.. كانت القرية خرابا وميسرنا أنقاضا، وكنت مرهقة جدا فانكمشت في رواية واستغرقت في نوم عميق.. وإذا برسول الله ﷺ قد أتاني في المنام.. لا أعرف كيف أصبل جماله لكم.. لم أشبع من النظر إلى وجهه للشيء، مسح رأسي بيده الشريفة قائلا:

- لا تقلقي، سينتهي هذا الظلم يوما يا ابنتي.

قلقت بأثم:

- من يا رسول الله؟ ولماذا لم يأت أصدقائنا المسلمين لمساعدتنا؟

- لهم في وضع أسوأ منكم، ومن الصعب أن يأتوا. ولكن سوف يأتي أحفادهم يوما ما.

وهيئة ظهر شاب إلى جانبه، طويل القامة جميل الوجه يشع النور من جميع أطرافه، فأشار الرسول ﷺ إليه قائلا:

- هذا هو أول من يأتي لمساعدتك، لكنه سيأتي من بلاد حارة، فلا يستطيع تحمل برد دياركم. فأسرعي بلسج جوربين له وقفازين، وقدميها إليه هدية عندما يأتي.

"لم أس ذلك الوجه أبدا..."

قررت للمصباح من وجه عاصم والدموع لطم على عينيها:

- كيف أنسى الوجه الذي كان يضيء عند رسول الله ﷺ مثل الشمس.

لم يمالك عاصم نفسه واهمرت دموعه هو الآخر. هرولت الجدة إلى الغرفة للمحاورة وفتحت صندوقا قديما وأخرجت منه جوربين وقفازين ثم رجعت مسرعة ومدتها إلى عاصم وعيناها تشعان بسعادة قاتلة:

- هيا البسها، إنها لك، إنها ستحميك من البرد. فهي انتظرت قدومك منذ خمسين عاما يا ولدي.

أخذ عاصم هديته العريضة منها ولبسها وقد غمرته مشاعر غامضة.. ازداد حيرة عندما رأى أنها على مفاص قدميه وبديه تمام.

امتلا قلبه بالسعادة والإيمان، فما عاد يشعر بالبرد ولا بالحرية، أحس بدواء الرسالة السامية التي يودها والعناية النبوية والرعاية الإلهية التي ترعاها هو ورفاقه الأبطال أن كانوا. ■

(*) كاتب تركي، المرحوم عن الحركة: نور الدين صوفلي، وهي قصة حقيقية وصفت في إحدى دول آسيا الوسطى التركية.

شعرية الإصلاح في أدب مصطفى صادق الرافعي

د. عبد السلام عتيق

ع

واخل عنهم لا يكون إلا بالمرءة إلى معين تراني برون لم يستعمل
بعد كما ينبغي؛ وفيه اخن للشرق للتحلف تحلقا صبيحا وللغرب
المقدم تقدما معشورا.

في هذه الظروف وفي معترك هذه الأسئلة المتصورة نشأت
أفكار الرافعي، وعت مقالاته الأدبية مساوقة للوقائع والأحداث،
ولكنه ظل في كل ذلك أدبيا يؤمن برسالة الأدب ومفكرا يصنع
فكرا أدبيا وأدبا فكريا.

الأدب والأدبية عند الرافعي

لقد نظر الرافعي في الأدب فوحده وسيلة الإسهاب الأولى يشهد
لها على نفسه أنه إنسان، مما من سبيل أخرى لإخراج الكه
الإنسان وبسط الجوهر البشري على العالم سوى الأدب. وفي
تعاينه الخارية ولولادة على نسق الحكمة ما يرفع قيمة الأدب
والأديب معا. لذا لم يكن الرافعي يرى في اللغة مجرد وسيلة
للشعر والرهبة، حتى وهو يملك من الوسائل ما يوهله للترن
والشعر، بل يعتبر الكلمة نقالا للمعاني يحده المدح للعارفين
كما يبحث العنان قطعه للرأي.

ولقد كان الرافعي يُشعس أدبه بين أيدي تاريخ حافل بأحباء
ما يرال لسل واحد منها دوني في أدن الزمان، حتى كأن التقدير
يحض قدره من بين أقدارهم، وهؤلاء هم طه حسين والعقاد
وشوقي والمعلوحي وحافظ والمازني. لكنه امتار عن هؤلاء جميعا
بالإصرار على فكرة كبيرة تبدو واحدة، نشأت لها كل أفكاره
الأخرى وهي أن الله سبط هذا الكون لفضي: الخير والجمال.
لذا فكل كتابات الرافعي ذاهبة في اتجاه إقامة صرح من مروح
الحمر أو الإطاحة بعرض من عروش التنس؛ لإقامة مثال من مثال
الحبال أو خسد صم من أصنام القبح. وهو في كل ذلك ملتزم
أشد ما يكون بالانتماء بعمق للأدب وشروطه، أي بكل عناصر
"الأدبية" كما يسميها النقد الحديث. وهي ذلك القدر من
الإيمان الفني الذي مهما عير عن فكرة أو مذهب لا يتلف من
أحلقها أنوية شعير فني في تدل دائما على ألفا في ظل الأدب

عاش مصطفى صادق الرافعي المرحلة الفرجية، نصح
بالأسماء الكبيرة في مجال الشعر والبعد والأدب.
وكانت المرحلة واقعة تحت تأثير مظاهر التحلف

الكبير الذي يمتصه العالم الإسلامي، في مقابل علامات مشرقة
للتصدد العربي أصرت أدب الكثير من المفكرين والمؤرخين
محصرها أولئك الذين قنر لهم أن يتطلوا في معات علمية إلى
ديار العرب.

في هذا الجو بدأت تشكل أسئلة فكرية تلقائية هدت إليها
مقاربة طبيعية بين جماليين مشاركين عمرانا وحضارة. فظهر للبعث
أن الفضاء العربي والإسلامي تحوّل إلى مجال لاحتصاص التحلف
وأسابيه، سيما كانت عاطفة الآخرين المتأخحة تعطلهم بنهمون
الغرب نفسه باعتباره راعيا لهذا التحلف إن لم يكن صانعه.
ولكن هؤلاء وأولئك متفقون على أن مشكلة ما استوطنت قلب
العالم والإسلامي وفكره، تم احتلقوا في
افتراح حلول تسمح تتجاوز هذا الدور
من الاعتباط. فكانت احتفادات الفباثين
تقودهم إلى الفتراح نوعين من الحلول:

الأول: الانتماء في أحضان الثقافة
العربية لأنها قادرة على تخليص
عالمنا من أمراض الحضارة، كما
حلصت العربيين أنفسهم من
قلابات التحلف والاعتباط
والاستبداد.

الثاني: بحبر الحبل
الأول عمالة لعرب ما
والت أباديه لم تعص
من دماء التفرقيين
بعد أن استباحهم
لاستعمار طويلا.

والانتماء الأصيل إلى الأدب؛ فالكتاب مهما تناول من موضوعات الفكر والحياة والإنسان فإنه يفعل ذلك وهو في مملكة الأدب لا يعادها. لهذا فإن أدبه هو بحق الأدب الذي يستحق أن يحمل شعار "الأدب الإصلاحي"، لأن وظيفة الإصلاحي عنده لا تخور على أبنية الأدب وأنساقه، وليست محضاً أسلوبياً للتشهير بالأفكار أو عريضة لتقلل الدعاوى والوصايا بل هي معرض ينسبط فيه الأدب شكلاً وروحاً، وينتشر الفارئ معاني الإصلاحي الجميلة في حلل من أنساق الفن الجميلة.

إن هذا الأدب يصغر في اختياراته الأدبية تلك عن وعي كامل بمد الأدب، والقراسات الأدب جهالياً ووظيفية. وهو ما يظهر في أماكن مختلفة من كتاباته كلما تعرض للحديث عن الأدب أو تتناول بالكلام الأدباء: "ومضاركة العلماء للأدباء ترجح أن يتصر الأدب بالأسلوب البلي، إذ هو كالطابع على العمل الفني، وكالتشهادة من الحياة للضرورة لهذا الإنسان الموهوب الذي حماه من طريقته (...). وقضل ما بين عالم والأدب، أن أعلم فكرة، ولكن الأدب فكرة وأسلوبها فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة بنسار إليهم جملة واحدة على حين يقال في كل أديب عبقري: هذا هو، هذا جده. وعلم الأدب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس. ولذلك فموضوع الأدب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار".

يقصر الراجعي أن الأدب قيمة مضادة على العلم -ويقصد بالعلم ما يتناوله الفكر مجرداً، أو ما يقتصد عند التعبير عنه من جهة الأسلوب والبيان، فتقدم المعاني والأفكار في الأسلوب المباشر والشفير البسيط- والقيمة المضادة هي الأسلوب.. أي ذلك الجهد الخاص الذي يفرغه الكاتب في الفكرة لثرداد تألقاً وتوهجا، بل هو يعتبره علماً، ولكنه العلم الذي يبدأ عند آخر نقطة يقف عندها العلم الطبيعي لأن الأدب يبدأ من الانعاز والأسرار، وينظر في الطبيعة من جهة ما تغيبه وليس ما تعرضه، أو هو بحث في تنسج الظواهر.. أي بحث في "الرومي" بتعبير "كانط".

ولا يستطيع أن يصاول إحقاق في تلك التحوم البعيدة غير الأدب الملهم، الذي أوقف نفسه على التفكير ولكن بعد أن يكون حظه من الإلهام موافقاً لما يستدعيه مثل ذلك الهائل ومثل ذلك الجهد.

ومعه. وهذا بتعبير "تورنوف" هو القانون الشعري: "العمل الأدبي تغيير عن شيء ما، وعناية الدراسة هي الوصول إلى هذا الشيء" عبر القانون الشعري.

هذا الشيء الذي يعبر عنه الأدب هو في تقدير الراجعي نفسه المستفاد من التأديب والتأديب، أي تلك الملكة الإنسانية الآلية المسودة بما راكمه التاريخ من حكم وفوائد وأمثال، وأخرجها في حلل الفن ليسهل قطفها: "ثم لما جاء الإسلام ووضعت أصول الآداب، واحتضوا على أن الدين أخلاق يُخلق بها فشت الكلمة، حتى إذا نشأت طفة للعلمين لعهد الدولة الأموية كما سيحيء أطلق على بعض هؤلاء لفظ المؤدين، وكان هذا الإطلاق توسعاً تانياً في مدلول "الأدب" لأنه اكتسب معنى علمياً إذ صار أترا من آثار التعليم. ثم استفاحت الكلمة وكانت مادة التعليم الأدبي قائمة بالرواية من الخير والنفس والشعر واللغة وغيرها، وأطلقت على كل ذلك، وتزلت منزلة الحقائق العرفية بالإصلاح، وهذا هو الدور الثالث في تاريخها المعري. وهو أصل الدلالة التاريخية فيها".

وهذا الرأي الذي كونه الراجعي حول الأدب وأدواره بالنظر والدراسة، سيتطور بالتطبيق والممارسة. وما زال الراجعي يحب للأدب فونا من القول والمعاني حتى وجد نفسه ليس فقط مؤرخاً بحكي ويستنتج ما يراه الأدباء أو ما هو في حكم رأيهم حول الأدب وانطباعهم به، بل هو نفسه قد صار أدبياً مثلاً عين الدنيا وسعها، مؤهل ليستخرج من ذات نفسه حكماً يقضي به حل الأدب على العالم، وكيف يكون الأدب سلازاه صور العالم وأحاسيسه وأدواره وأحيائه:

"ثم إن الانساق والخير والحق والجمال، وهي التي تفعل للحياة الإنسانية أسرارها، أمور غير طبيعية تقوم في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والسرّاع والشهوات (من ذلك بأن الشاعر والأديب وهو الفن علاجا من حكمته الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعة فيه، وهو عالم أركانه الانساق في المعاني التي تجري فيها، والجمال في التفسير الذي يتأدى به، والحق في الفكر الذي يقوم عليه، والخير في الغرض الذي يساق له (...). وهذا هيب لك الأدب تلك الغرة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدينا وأحداثها مارة من حلال نفسك، ونفس الأشياء كأنها انتقلت من قواها، وذلك سر الأديب العبقري".

ولعل الفارئ لتلمعن في أدب الراجعي وأعماله، يستشعر ذلك

إن الأدب الحق إذن لا يكذب، ولكنه وهو يبالغ يكون بمثابة المجهر الذي يضاعف موضوعه للعين أضعافاً كثيرة حتى ينجلي لها تكوينه وأسواره، وهي لم تكن قادرة على تدقيق ذلك من أول نظرة. فكان الأدب حسب الراجعي يجر الحقائق النفسية والكويشة، يخرجها الأدب بعد أن تعمل فيه نوعاً من العمل يختلف فيه أثره، فيعكسه هو متأملاً متفكيراً على أنفسه من أسلوبه الخاص. لهذا فالأدب عند الراجعي "يشير على هذه الدنيا من بصيرته".

ولذلك استحق الأدب عند الراجعي هذا التعريف: "ولو أردت أن تعرف الأدب من هو وما حدث أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الأسان الكوي، وغيره هو الإنسان فقط".

الأدب والفضيلة

يحجب قارئ الراجعي من هذه الصلة القوية التي تربط مقالاته بعضها إلى بعض، وتعمل للعاني تكامله بين مؤلفاته، حتى كأنها نسيج واحد أو ديوان يتعقب معنى الحياة وأسرارها. والراجعي نفسه يستشعر ذلك ويذكره غير ما مرة مبيلاً على هذا الكتاب أو ذاك أو على هذه المقالة أو تلك مبتدئاً أنه أفاض القول ووسع المعنى. وأدب الراجعي غي بـ "مطوطو كوجا" داخلياً تتسلسل بين مقالاته علائق تدبغ لما يسميه "لوسيان دلباح" التناص الذاتي. وسبب ذلك في نظري أن الراجعي يكتب في الحقيقة موضوعاً واحداً، ولكنه موضوع كبير هو موضوع هذه الإنسانية، أو كما يقول الراجعي عن نفسه: "لا أراي وصعت كل كتي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي وهذا القلب الذي بين يدي".^{٦٦}

فكل مقالات الراجعي وكل الموضوعات هي تغليب في أسرار هذا المكون الاجتماعي وريفة في فك بعض أفكاره، ولكن الكاتب لا ينسى وهو يسيل قالك الخداف عدته الأدبية ووسائله الفنية، وهي أيضاً شأن من شؤون الإنسانية.

وبلنك تكامل ثنائية الأدب، وتلحم شكلاً ومضموناً لتركيب عملة فية غسا وجهان: الفضيلة والجمال أو الشكل والوُجوع. فالفضيلة من منظوره جمال موضوعي، والبيان فضيلة شكلية. لذلك كان هدفه الدائم أن يُرغ كل شخصات الجمال التي ينسقطها من هنا ومن هناك، ليملاًها وجنان القراء فريدادوا بأدبه فضيلة وجمالاً. وإذا عرف شأن هذا المطلب عرف شأن الراجعي.

ورغم أن أغلب كتاباته تلبست بإهاب قصصي إلا أنه مع ذلك يعلن عزوفه عن الكتابة الروائية لكونه لاحظ على أغلب النصوص الروائية وقتئذ جرحها إلى التسوّل والإسفاف ومحاطة الغرائز، عرض أن تشد السمو والارتقاء بالنفس والحياة معاً. ولما كان يحس أهمية الحكيم في أداء بعض الوظائف الأدبية هو نفسه مسكون هو أجسها، اضطر إلى أن يكتب مقالا بمثابة إعلان وثيرة ذمة "فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها":

"وأنا لا أنكر أن في القصة أدباً عالياً، ولكن هذا الأدب العالي في رأبي لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربّي الأطفال على أسلوب سواء في العلم والفضيلة. فالقصة من هذه الناحية منسوخة من قانون مسنون وطريقة محمّدة وغاية معينة، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفراد من فلاسفة الفكر الذين تصيهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الخاتمة في المشكلة التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة. وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الأدب راع وخب، كان من أثر قصصهم ما يتحبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز. هذه الفوضى المقنونة التي لو حققناها في النفوس، لما رأيناها إلا عامية روحانية منحلة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق وخالها".

وكأن بالذين لم يتركوا هذه لتعاقد تعاملوا مع أدب الراجعي على نحو تجزيي، فأحلوا شذرات من أفكاره ومعانيه نقصت في أذهانهم بالنقص الحاصل بسبب ما بقي من تنمائها في المقالات الأخرى. والرجل في مجلة الدائب عن أسرار الجمال والحر يتوسل بكل الطرق، ويترك أبواب الاجتماع الإنساني، ينقل أفكاره من هنا ومن هناك، فيجعلها تعيش في حياته مدة من الزمن يكسبها صفة التعالي عن الطرفة الملوذدة والأشخاص المعينين، فيخرجها أدباً سامياً يتسلح بالصورة المجازية والتعبير الشعاري، لتصبح صورة كل رمان وكل مكان وكل إنسان، عوض أن تبقى صورة محل واحد وزمان واحد وإنسان واحد. ■

(٦٤) استلذا بحث في لندرسه الوطنية للتحارة، ورئيس شعبة اللغات والواصلها، جامعة أبي زهر، أكادير/ المغرب.

المصادر:

(٦٥) وحى القلم، مصطفى سادى الراجعي.

(٦٦) تاريخ أدب العرب، مصطفى صادق الرافعي.

(٦٧) الشعرية، نوظنان بوفوروف، سيد سكرى المحوت.

صلاة...

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه

كَلِمًا أَهَمَّتِي الدُّعَاءُ وَقَدْ نَكَتْ
شَمْتُ فِي خَيْرِهِ الْوَحْيِ بِجَانِبِكَ

وَنَزَلَتْ لِعَبْدِي لَيْلِي بَرِيًّا
مِنْ جَمَالِهِ أَتَيْتُ لَيْلِي جَمَالِكَ

وَنَزَلَتْ لِسَمْعِ الرُّوحِ فَمَسَّ
مِنْ شَفَاةِ الشَّجَرَةِ يَكُونُ لَيْلِي

وَأَحْصَى لَيْلِي قَوْلَهُ وَعَشْرُهُ
وَأَحْصَى لَيْلِي الشَّعْبُورُ لَيْلِي حَيَاتِكَ

مَا تَمَالِكُ أَنْ يَخْرُ كَيْفِي
سَاجِدًا وَاجِدًا، وَمَنْ يَسْأَلُكَ؟

اسم "هامان" معجزة قرآنية

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الْفِطْرِ فَاغْلُظْ
فِي مَعْرَسَا أَعْلَى أَطْلُعْ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (الشعشع: 43-44)

﴿أورعان محمد علي﴾

يقول الدكتور عبد الحليم شلبي الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية إنه لا يوجد أي مانع معطلي من وجود شخص اسمه هامان في عهد فرعون موسى عليه السلام، وشخص آخر بالاسم نفسه في عهد ملك بابل "أحشوروش"، ويشير إلى أن قصة الفتاة أمستير والملك ووزير هامان قصة خيالية وأسطورية من الأساطير لا حقيقة لها، ويبرهن على ما يقول كالتالي: "إذا رأيت قصة أمستير لم تذكر في غير التوراة، والبيان "عزرا" و"نحميا" اللذان كانا من أوائل العائدين من بابل، واللذان قضا قصة السبي البابلي لم يشيرا إلى أمستير ولا إلى أي شيء مما جاء في السفر المسمي باسمها، وكذلك للمؤرخ الإغريقي "هيروديت" الذي عاصر ألكسيس ودون سيرة من بشر إلى أمستير وأحداثها، وزعم أن اسم أمستير محرقة عن عشتار، وهذا مما يوضح أن القصة أحدثت عن أسطورة بابلية".

أما جواب كتاب "حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين" فكان جواباً موجزاً، وملخصه أنه من الجائز أن كلمة "هامان" ليست اسماً لشخص ولكنة لقب يطلق على "ناب

دأب المستشرقون منذ سنوات عديدة على تكرار شبهة عند القرآن كانوا يعتقدون لها شبهة قوية، فذكروا أن ورود اسم "هامان" كأحد المقربين إلى فرعون في عهد موسى عليه السلام خطأ تاريخي، فالنوراة لم تورد اسم هامان عند ذكرها قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل مع فرعون، كما لم يذكر هذا الاسم أي مؤرخ يوناني قديم، ولم يرد اسمه في أي نص تاريخي قديم يتكلم عن تاريخ مصر القديم، ولم يرد هذا الاسم إلا في سفر "استير" في التوراة، حيث ورد فيه أن ملك بابل "أحشوروش" كان له وزير اسمه هامان، وأن هذا الوزير كان يعادي اليهود المرحوبين في بابل بعد الأسر البابلي، وأنه ظلمهم ظلماً كبيراً، ولكن اليهود تخلفوا من وضعهم المؤرق ومن ظلم هذا الوزير بعد زواج الملك من فتاة يهودية حسنة فتنة وسعت لدى الملك حتى نكحت في قتل هذا الوزير والانتقام لشعبها أي إن هامان لم يكن في عهد فرعون موسى عليه السلام في مصر، بل في بابل وبعد ألف عام تقريباً من وفاة موسى عليه السلام، أي يقع القرآن -رغمهم- في خطأ تاريخي كبير.

فرعون" مثلما يطلق اسم فرعون لقباً على حاكم مصر أو ملكها.

ولكن أفضل من شرح موضوع هامان هو العالم الفرنسي المسلم "موريس بوكاي" في كتابه "موسى وفرعون" (Moise et Pharaon) إذ قام ببحث مستفيض حول قصتي يوسف وموسى عليهما السلام كما وردتا في التوراة وقارعهما عما جاء في القرآن حوطماً، وتوصل بعد بحث علمي وموضوعي دقيق إلى أن المعلومات العلمية المتوفرة لدينا تغلب بجانب ما جاء في القرآن وتختلف ما جاء في التوراة.

يقول موريس بوكاي: "لقد جاء ذكر هامان في القرآن كرتبوس للمعاريين والبنائين. ولكن الكتاب المقدس لا يذكر أي شيء عن هامان في عهد فرعون. وقد قمتُ بكتابة كلمة "هامان" باللغة الفيروغولفية (لغة مصر القديمة) وعرضتها على أحد المختصين في تسارخ مصر القديمة. ولكي لا ادعه تحت أي تأثير لم أذكر له أنها وردت في القرآن، بل قلت له إنها وردت في وثيقة عربية قديمة يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي. فقال لي المختص: "يستحيل أن ترد هذه الكلمة في أي وثيقة عربية في القرن السابع، لأن رموز الكتابة باللغة الفيروغولفية لم تكن قد حلت آنذاك". ولكي أتفق من هذا الأمر فقد أوصاني بمراجعة "قاموس أسماء الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة" لمؤلفه "اللامند رانك". نظرتُ إلى القاموس فوجدتُ أن هذا الاسم موجود هناك ومكتوب باللغة الفيروغولفية وباللغة الألمانية كذلك. كما كانت هناك ترجمة معني هذا الاسم وهو "رئيس عمال مقالع الحجر". وكان هذا الاسم أو اللقب يطلق آنذاك على الرئيس الذي يتولى إدارة المشاريع الإنشائية الكبيرة.

استلخنت تلك الصفحة من ذلك القاموس وذهبت إلى المختص الذي أوصاني بقراءته، ثم فتحتُ ترجمة القرآن بالألمانية وأريتُه اسم هامان فيه فاندبته ولم يستطع أن يقول شيئاً. لو جاء ذكر اسم هامان فرعون في أي كتاب قبل القرآن، أو لو جاء ذكره في الكتاب المقدس لكان المعترضون على حق، ولكن لم يرد هذا الاسم حتى نزول القرآن في أي نص، بل ورد فقط على الأحجار الأثرية لمصر القديمة وبالحظ الفيروغولفي. إن ورود هذا الاسم في القرآن لهذا الشكل للحد لا يمكن تفسيره إلا بأنه معجزة، وليس ثمة أي تعليل آخر. أجل، إن القرآن أعظم معجزة".

وكما سبق القول إنه ما من مؤرخ أو كتاب أو نص أثار إلى شخص اسمه هامان كان مقرباً من فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام، ولم يكن أحد يعلم شيئاً كثيراً عن تاريخ مصر القديم، لأن العلماء كانوا عاجزين عن قراءة الكتابات المصرية القديمة المكتوبة بالفيروغولفية. وقد اندسرت اللغة الفيروغولفية تدريجياً بعد انتشار المسيحية في مصر حتى أصبحت لأمماً. وآخر نص مكتوب بهذه اللغة كان في عام ٣٩٤م، ولم يعد أحد يتكلم بها أو يعرف قراءتها. واستمر هذا الوضع حتى عام ١٨٢٢ عندما استطاع العالم الفرنسي "فراجيان فرانسوا شاميليون" فك رموز هذه اللغة التي كان هناك نص مكتوب بها على حجر رشيد (Rosetta stone).

وقد تم اكتشاف هذا الحجر من قبل صايط فرنسي عام ١٧٩٩م في أثناء الحملة الفرنسية على مصر في قرية رشيد بمحافظة البحيرة. كان هناك نص بمقد فرعون مصر وانتصاراته ومكتوب بثلاث لغات هي: اللغة الفيروغولفية، واللغة الديموطيقية (وهي اللغة العامة المصرية القديمة) واللغة الإغريقية. وكان تاريخ الكتابة يعود إلى عام ١٩٦ ق.م. وساعد وجود هذه اللغات الثلاث العالم الفرنسي على فك رموز اللغة الفيروغولفية. فقد قام بمصاهاة هذا النص بالنص الإغريقي ونصوص هيروغولفية أخرى حتى سمح في فك رموز الفيروغولفية، لأن النص اليوناني كان عبارة عن أربعة وخمسين سطراً وسهل القراءة. وهذا يدل على أن هذه اللغات الثلاث كانت سائدة إبان حكم البطالسة الإغريق لمصر.

وبعد حل رموز الكتابة الفيروغولفية علما من الكتابات الموجودة على عدد من الأحجار الأثرية العائدة للتاريخ المصري القديم وجود شخص مقرب من فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام كان مسؤولاً عن البناء اسمه "هامان". وهناك حجر من هذه الأحجار المصرية القديمة ورد فيه هذا الاسم وهو موجود في متحف "هوف" في "فيينا" عاصمة النمسا. ■

٥٨ كتاب وبحث تركي.

المصادر

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، المجلس الأعلى، مصر.

(٢) مقدمات للشرح على الإسلام، د. عبد الحليم شلي.

(٣) عبقرة الحضارة لمصر القديمة، أحمد محمد عوف.



آثار الرسول في جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول

عزّدتنا "دار النيل للطباعة والنشر" التركية على إنجاز كثير من الأعمال المتميزة في شتى شؤون المعرفة. ولعل من أهمها وأعظمها أثراً وقرماً إلى قلوب شعوب العالم الإسلامي قاطبة هو هذا السجل الحافل بمحتويات جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول الزاهر بأثار عظماء الإسلام وما تركوه من إرث للأجيال اللاحقة على مسر التاريخ، وعلى رأس هذا الإرث ما تركه سيدنا رسول الله ﷺ.

ومن نافذة القول أن نذكر أن إسطنبول بعراقها التاريخية، وبكونها ظلت عاصمة للعالم الإسلامي ما يقرب من خمسة قرون، كانت تسعى بحداية منقطعة النظير للبحث عن هذه الآثار واقتنائها وحليها من أي مكان في الأرض لحفظها والعناية بها في قصر هو من أشهر قصور العالم في غياه الآثار الإسلامية، وهو قصر طوب قابي. لقد وجدت إسطنبول في هذه الآثار ولا سيما ما يخص منها آثار سيدنا رسول الله ﷺ قداسة تفرس عليها كما تفرس على ماء عيبتها. لذلك فقد أودعت هذه الآثار محفوظات غاية في الإتقان لكي تصون هذه الآثار سليمة من عاديات الزمن وتقلبات الأحرار.

وقد بلغ من احترام الملوك المسلمين والسلاطين العثمانيين لهذه الكنوز التي تخص العالم الإسلامي برمتها أنهم كانوا يصنعون ما يتأثر عليها من أجرة في قارورة زجاجية ثم يودعونها أعماق بئر داخل قصر طوب قابي خصص لهذا الغرض، خوفاً من أن تصبح مدلى أقدام عن طريق السهو والخطأ مما يخلد الاحترام الذي تكنه الصدور لهذه الأمانات.

ومن أهم ما يفخر به متحف طوب قابي على متاحف الدنيا احتواؤه على بعض من آثار سيدنا الرسول عليه السلام ومنها برده الشريفة، وبعض سيوفه، ورايته العقابية الشريفة؛ وتيمناً بشكل للمحفظة التي كان لها شرف الحفظ على المردة الشريفة فقد شُتم غلاف الكتاب بعمية عالية على موافا وبالشكل نفسه. ولأهمية هذا الكتاب لدى المؤرخين والساحين والكتّاب فقد ترجم من اللغة التركية إلى العربية والإعلبية.

جزى الله تعالى الأستاذ حلمي أيدين مؤلف الكتاب خير الجزاء على هذا الصنيع العظيم، وجزى الله مترجمه إلى العربية الأستاذ حميد مبراش، وكل من أسهم في إعداد هذا السجل الوثائقي بشكله الفني والجسماني. ■



مركز التوزيع فرع القاهرة:

٧ ش البرامكة، الحي السابع،
مدينة نصر - القاهرة / مصر

تليفون فاكس: +2022619204

محمول: +20127874552



حراء

جريدة ثقافية
www.haraa.com

عدد ٧٠ صفحات • تركيزه ليرت • أفرول ٢٠٠٥ • أمريكا: صة دولر

يا رحمة للعالمين

أموات من مرأكم أمتوا حتى لا تستقيم أنفاس الجناد منكم ..
وقلوب من هجعتنا استغثت حتى صيحت بكم النداء ..
طل نفسك وندى ربي عليك .. إننا نعالجك فكانت ولاي لك نعلمك الآن ..
وتنبر العفول .. إغاثك منة فكرينا بسبل منة ومعد إلى الخير البعد ..

